رابطة الجامعيين
مكتبة مركز الابحاث
الرقم .....
التاريخ .....

رابطة الجامعين/الخليل
دائرة البحث والتطوير

الفردوس السليب

الجزء الأول

الخليل ١٩٩٣م

٩٥٦,٩٤١
ا ب

فلسطين - كتابات مختارة

بسم الله الرحمن الرحيم

الفردوس السليب ـــ مقالات صحفية نشرت في جريدة "فلسطين" عام ١٩٥٥ـ تم اعادة إصدارها في أجزاء لأهميتها التاريخية، في عهد مجلس رابطة الجامعيين الموقر، والمكون من السادة التالية اسماؤهم:

١. الاستاذ أحمد سعيد بيوض التميمي	:	رئيساً.
٢. الدكتور سفيان سلطان	:	نائباً للرئيس.
٣. المهندس إبراهيم عمرو	:	أميناً للسر.
٤. الاستاذ سليمان أبو سنينة	:	أميناً للصندوق.
٥. الدكتور عبد القادر الجبارين	:	عضواً.
٦. الاستاذ رفعت طهبوب	:	عضواً.
٧. المهندس علاء الجعبري	:	عضواً.
٨. الاستاذ أحمد بصيلة	:	عضواً.
٩. الدكتور حجازي أبو ميزر	:	عضواً.

بوليتكنك فلسطين
Palestine Polytechnic Institute (PPI)
المكتبة
THE LIBRARY
Acc. ٤٢٣٧ الرقم المتسلسل
CLASSIFCATION ..... رقم التصنيف

شـــكر وتقديـــر

نتقدم بجزيل الشكر، ومن أعماقنا للأستاذ أديب الناظر، وذلك لاحتفاظه بهذه الذخيرة التاريخية (جريدة فلسطين) التي أرخت للاحداث والاماكن والمواقع والملاحم البطولية التي خاضها هذا الشعب الخالد أمد الدهر.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

احتلت القضية الفلسطينية مركز الصدارة في العالم العربي منذ بداية القرن الحالي وحتى الآن، وذلك لان فلسطين تعرضت ولا تزال تتعرض لهجمة استعمارية صهيونية شرسة تستهدف الارض والانسان معا، وقد عمل المثقفون الفلسطينيون على توضيح ما يجري على الساحة الفلسطينية من مخاطر إلى الرأي العام العربي والاسلامي والدولي منذ اللحظة الاولى التي بدأ فيها الصهاينة بتكوين موطيء قدم لهم في فلسطين. وأهم الوسائل التي استخدمها هؤلاء المثقفون هي الصحافة، حيث أن الصحف الفلسطينية متمثلة في صحف الاصمعي والكرمل وفلسطين وغيرها قد حذرت من الاهداف الصهيونية المتمثلة في ابتلاع الاراضي بطرق غير مشروعة وطرد الفلاحين منها، مما جعل المنظمات الصهيونية تحتج لدى السلطات الحاكمة، وجعلها تقدم على تعطيل هذه الصحف عدة مرات. من ناحية أخرى أسهمت المقالات المختلفة التي كانت تنشرها هذه الصحف إلى تبني بعض الصحف العربية رسالة هذه الصحف الفلسطينية في التصدي للاخطار الصهيونية وحشد التأييد للقضية الفلسطينية في دمشق وبيروت والقاهرة.

استمرت الصحافة في حمل رسالتها الوطنية طيلة فترة الانتداب البريطاني على فلسطين، وأسهمت بشكل كبير في ابطال كثير من صفقات بيع الاراضي وحشد مزيد من المهاجرين إلى فلسطين على مرأى ومسمع من سلطات الانتداب، كما كانت الاداة الفعالة في إشعال الثورات الفلسطينية المتعاقبة وعلى رأسها ثورة عام ١٩٣٦م. وبعد نكبة عام ١٩٤٨م بدأت الصحافة تسلط الاضواء على الفترة السابقة وما اعتراها من مؤامرات وتقصير وأحداث من أجل استجلاء الحقيقة وأخذ العبر، وحفظ مجريات التاريخ الفلسطيني المعاصر. فقامت صحيفة فلسطين بتخصيص جزء من نشرتها بعنوان "الفردوس السليب"

تتناول فيه المدن والقرى الفلسطينية وكيفية وقوعها بيد الاحتلال الصهيوني عام ١٩٤٨. ونحن اليوم نضع ما تقوله هذه الصحيفة بين يدي القاريء حرصا منا على تعريفه بحقائق الامور من مصادرها الاساسية دون تحيز أو عاطفة وزيادة المعرفة عن تاريخنا الفلسطيني المعاصر، كذلك نريد توجيه اهتمام الباحثين والدارسين للتاريخ الفلسطيني إلى المعلومات الواردة في هذه الوثيقة كمصدر للتأريخ الفلسطيني حتى تتضح الجوانب الناقصة أو الغامضة فيه.

ليس هذا فقط ما نريد أن نقوله باعادة نشر "الفردوس السليب" فهناك فوائد كثيرة قد يدركها القراء والمختصون في حينه، ولكننا نقول اننا بعملنا هذا نقدم لابنائنا من الجيل الجديد، الجيل الذي فجر الانتفاضة واعاد صياغة شكل جديد من الصراع مع اليهود، نريد أن نقدم لهم ما رواه ابناء النكبة عن النكبة نفسها ووصف ابناء البلاد الذين هجرتهم الخيانة وطردهم الظلم والطغيان، كما نريد أن نعرف الجميع بفلسطين مدنها وقراها، طبيعتها وموقعها، مناخها وجغرافيتها، كيف سلبت؟ وكيف قاوم اهلها؟ وكيف تصرف شبابها ونساؤها؟ كيف قاومت مدنها وقراها؟ كيف تعامل العرب وجيوشهم مع هذه الهجمة الشرسة الظالمة؟

واخيرا، نسأل الله أن يكون في هذا خير للجميع ودرس للصغير والكبير، وأن يكون عملا خالصا لوجهه تعالى.

دائرة البحث والتطوير

تقديم جريدة فلسطين.

لاننا نؤمن بان الذكرى تنفع المؤمنين، نبدأ من اليوم، وتحت هذا العنوان في كل يوم، بايراد نبذة عن الوطن السليب.

وليست الذكرى، التي نريد، نحبا ولا بكاء، بل هي استنهاض للهمم.

والذكرى الكاملة، هي تاريخ وجغرافية وأدب النضال، وأدب النكبة، وأدب ما بعد النكبة. وهي مزيج من الرقم والواقع. والشعور بالحنين والتصميم. والتمرد على الكرامة المهيضة.

هذه الذكرى الممزوجة، هي التي نريدها، لتؤدي قسطها، كعامل من عوامل البعث ... البعث الذي يخلق امة تحارب وتنتصر. لتعيد فردوسا فقد، ووطنا سلب واغتصب.

* * *

ولن يكون هذا الباب وقفا على محرري (فلسطين) وانما هو مفتوح ليكتب فيه القراء الكرام من ابناء البلد الحبيب، ومن غير ابناء البلد الحبيب، الذين يشعرون بالنكبة، ويؤمنون بالعودة، ويعملون لجعل النكبة، نعمة بالعودة والاستعادة !

وليست دعوتنا للقراء مقصورة على مساهمتهم فيه، وانما نحن ندعو القراء الكرام لان يقراوا لاهلهم وذويهم وصغارهم ما يكتب في هذا الباب، لأن في ذلك تادية لبعض واجب وطنهم عليهم.

* * *

أن من حقنا أن نحيا ... وما دمنا نؤمن بهذا الحق، فان من حقنا، بالتالي أن نحيا في بيوتنا وفي وطننا.

فلنؤمن بذلك ولنسع لبلوغه !

أسباب هزيمة العرب العسكرية في فلسطين (١)

مستويان للبحث: الأول دراسي والثاني عاطفي.

الهزيمة أو النصر لايمكن أن يكونا مطلقا نتيجة للصدفة.

بقلم: وصفي التل

توطئة

في أعقاب هزيمة المانيا في الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٨م عالج المسؤولون الالمان موضوع الهزيمة على مستويين، الاول مستوى الدراسة الموضوعية والثاني مستوى الدعاية والاعتذار.

في المستوى الاول عكف المسؤولون الالمان على دراسة أسباب هزيمة الجيش الالماني دراسة مفصلة. قام بهذه الدراسة اختصاصيون تناولوا بالبحث والتمحيص والتدقيق واعادة النظر في كافة عناصر المجهود الحربي الالماني في الجبهات الداخلية وبجبهات القتال، وقارنوا كل ذلك بمجهود الحلفاء المقابل وناقشوا مجاهيد الادارة والتموين والتسليح وأنواع السلاح وأساليب التدريب في الطرفين المتحاربين، وبحثوا اساليب السوق والتعبئة وصفات القتال في جنود الطرفين، وخرجوا من هذا البحث الممحص إلى تشخيص واقعي لكافة نقاط الضعف والقوة في المجهود الالماني مع مقترحات مفصلة للعلاج بتبديل اساليب التدريب، تناولت جميع النواحي والنقاط حتى انماء روح المرح والنكتة في الجندي الالماني ليصبح ندا للجندي البريطاني في هذه الناحية، وبالطبع تحولت هذه الدراسات والمقترحات كاملة إلى قيادات التدريب ومعسكراته لاعادة اعداد الجيش الالماني بموجبها.

أما في المستوى الثاني، في مستوى الدعاية والاعتذار فقد اذيعت قصص اخرى عن الهزيمة تلقي التبعة على غدر الشيوعيين ومن ثم اليهود الذين طعنوا الجيش المحارب من الخلف وارغموه على الهدنة في وقت كان فيه ما زال يحتل ارض الاعداء.

بهذين المستويين بحث الالمان هزيمتهم في حرب ليستعدوا لحرب ثانية، ويلاحظ أن المستويين قد سارا جنبا إلى جنب كما انبثقا من مصدر واحد وتوجيه. مع أن الهدف الاول كان جماعة المسؤولين والعاملين الذين لا تزعزعهم الحقائق مهما كانت مرة، وكان هدف المستوى الثاني عامة الناس التي تفيد معنوياتهم التنشيط وتعليق الهزيمة على امور تعتقد انها خارج مجهودها وذات صفة مفاجئة غادرة. هذا مع الاشارة إلى أن رفع المعنويات هو انه بالفعل من جملة العوامل الهامة التي تسهل خطوات العلاج واعادة النظر في المستوى الاول، اي انها عامل منشط محذر في الجهة التي يجب بها التحذير والتنشيط اي جهة الشعب الذي لا يشرف كافة افرادة مباشرة على العلاج واعادة التنظيم، وهي بنفس الوقت تسهل أعمال المسؤولين عن الوقائع كما هي، وبذلك لا تؤثر على اعمالهم اعتبارات العاطفة والدعاية. فالمستوى الثاني اذا هو مستوى موجه مقصود لا مجرد سيل جارف من الاكاذيب والاعتذارات التي لا يضبطها ضابط ولا يعرف لها اصل.

قصدت بهذه التوطئة أن أبين انموذجا لمعالجة اعتبرها مثالية قام بها شعب أصيب بهزيمة عسكرية لا تقل عمقا وعنفا عن هزيمة العرب في فلسطين، مع ملاحظة أن الانفعال الأول الذي أصاب المسؤولين الالمان وقتئذ هو الرغبة العميقة المخلصة في معرفة ودراسة عناصر القوة والضعف في المجهود الحربي الالماني. هذه الدراسة العميقة التي تميزت بموضوعيتها ومواجهتها الحقائق كل المواجهة والاعتراف بها وبالتالي القيام بعملية تشخيص واقعية لا تعرف المواربة والمخادعة، وعلى أساس هذا التشخيص بدأ العلاج، ومعنى هذه العملية بدء معركة الثأر وبدء الاحتياط لاي حدث مقبل ومن ثم الاستعداد للجولة الثانية.

ان غاية بحثي هذا هي أن احاول قدر المستطاع أن اضع امام هذا المؤتمر دراسة موضوعية عن أسباب هزيمة العرب العسكرية في فلسطين، واعتقد اني مرجع واهل لهذه الدراسة بحكم مهنتي كجندي وبحكم موافقتي واشتراكي بمراحل الاستعداد العسكري العربي واهتمامي بتطوراته واتجاهاته بحكم

مهنتي ايضا وبالتالي تشرفي بتحمل مسؤولية قتال في فلسطين، وعملي كضابط ركن وآمر قطاع وقطعة مقاتلة في فلسطين منذ بدأ القتال إلى ما بعد الانقلاب السوري الاول.

أولـيـات البحث

١. يجب الاعتراف ان الهزيمة في فلسطين كانت بالدرجة الاولى هزيمة عسكرية ذلك ان العرب ارادوا فرض ارادتهم في قضية فلسطين بقوة السلاح، وفشلوا في ذلك عسكريا والنكسة التي اصابت العرب في قضيتهم في فلسطين بمرارتها والمها وصداها النفسي العميق كانت نتيجة مباشرة للهزيمة العسكرية من جهة وخيبة العرب في جهدهم العسكري وقتئذ من جهة اخرى.

٢. ان الجهد العسكري لاية أمة في القتال هو المحصلة النهائية لكافة جهود الامة في كل الميادين سواء كانت هذه الجهود سلبية أو ايجابية. معنى هذا ان الامكانيات الصناعية والاقتصادية والبشرية والعقلية وغيرها من الامكانيات الايجابية تتكاتف كلها لتشكل محصلة للجهد ايجابية، كما تتكاتف الجهود السلبية من خيانات ومؤامرات وسوء تنظيم قيادة. والمساويء الادارية والحكمية، وتشكل محصلة سلبية تنقص من قدر المحصلة الايجابية وربما طغت عليها ودمرتها. والناتج من اندماج المحصلتين وتفاعلهما هو الذي يذهب إلى المعركة.

٣. المقصود بالجهد العسكري هو الجهد الممكن دفعه للمعركة في زمان ومكان بعينهما. هذا ما يعرف عند العسكريين بالنفير السوقي، معنى هذا ان الجهد العسكري هو الرأسمال الممكن تداوله والتحكم به ودفعه للمعركة في مكان وزمان بعينهما وليس من الجهد العسكري والامكانات المقبلة أو التي لا حيلة لنا باستخدامها، وعلى هذا لا يجوز ان ندخل في حسابات المعركة أمورا ستتم أو تتوفر في المستقبل ولا معنى للاعتماد على ٧٠

مليون عربي بينما لا يمكننا ان ندفع للمعركة بسوى فرقتين، وكذلك لا معنى للاعتماد على البترول العربي بينما لا يمكن ان نؤمن وقودا لكتيبة مدرعة. ان الامكانات والجهود العسكرية تحدد بزمان ومكان المعركة.

٤. في المعركة الحديثة الشاملة ليس من الممكن ان تنتج الهزيمة أو ينتج النصر نتيجة للصدفة واعتباراتها ولو قد تؤدي الصدفة لكسب معركة أو اكثر، ولكن يستحيل كسب الحرب عن طريق الصدفة. الحرب صدام شامل بين ابداع وجهود الطرفين المتحاربين. والطرف الاثقل وزنا في الابداع والجهد المحشود هو الكاسب لا محالة ضمن قيود الزمان والمكان.

٥. لا حاجة للتأكد على انه رغم خطورة واهمية الوسائل المادية (النار والكتلة) في المجهود الحربي، الا ان الناحية المؤثرة نهائيا والتي تقلب الموازين في النهاية وتعوض النقص في الوسائل المادية للحرب هي الطاقة العقلية والابداعية للقوى المقاتلة (السرعة والمناورة)، فمع أن صفة الحرب الحديثة هي صفة ثقل في النار والكتلة الا انه من المؤكد ان وراء هذا الثقل طاقة عقلية متمرسة ومبدعة هذه الطاقة العقلية اذا عجزت قد تسبب اندثار وضياع الكتلة الكبيرة، وبالعكس اذا كانت الطاقة العقلية عالية مبدعة فانها تعوض نقص الكتلة وتزيد من فعاليتها، وعلاقة الكتلة بالطاقة العقلية علاقة حسبة فيزيائية مباشرة تشبه معادلة ضرب الكتلة بالسرعة لانتاج القوة، معنى ذلك ان الطاقة العقلية والتدريبية للضباط والرقباء والجنود هي العامل المؤثر في المجهود الحربي والقوة العقلية لهؤلاء تعتمد على درجة ثقافتهم وتعليمهم وعقيدتهم وتدريبهم.

وهذه الاوليات برأيي تؤمن لبحثي القابل الاسس التالية:

أ. انها تشكل اساسا لمناقشة وتفنيد اسباب الهزيمة التي سيأتي شرحها.

ب. انها تضع حدودا للبحث بحيث تحصره بأسباب الهزيمة العسكرية حسب مفهوم محصلة الجهد العسكري الذي سبق وبينته.

ج. انها تحصر البحث بحيث لا يتطرق باسهاب الى ايراد عوامل الهزيمة في ميدان السياسات الخارجية والداخلية ودعاوي المؤامرات والتواطؤ والاوضاع

الاجتماعية والنفسية في البلدان العربية، وهذا الحصر لا ينكر مطلقا اهمية هذه العوامل لأن الجهد العسكري هو كما بينت محصلة لتفاعل هذه العوامل مع الجهود الايجابية الأخرى، مع الاشارة إلى ان الجهد العسكري هو بالفعل استمرار للجهد السياسي بصورة قتالية.

تفنيد بعض الادعاءات عن اسباب الهزيمة.

١. من الصعب الالمام كليا بكافة نواحي وتطورات كافة الاجتهادات الرسمية والشعبية في تعليل أسباب الهزيمة في فلسطين، الا انه من المؤسف ان اقرر ان معظم هذه الاتجاهات قد نحت بمنحى الدعاية والاعتذار والتنصل من المسؤولية، ومحاولة الصاق التهم بهذه المهمة أو تلك أو من ثم القاء المسؤولية على الاستعمار وعلى الخيانات إلى اخر هذه القصة التي تطالعنا بها كل يوم الصحف والمذكرات والبيانات والمهاترات، هذه الاسباب ليست دقيقة ولا صحيحة برمتها وعلى فرض صحتها فانها تشكل انفعالا عديم الفائدة مثل النواح على الطلول والانفعال المفيد في هذه الحالة هو الانفعال الذي يكتشف عيبا ويداويه.

هذا بالاضافة إلى ان الاجتهاد التنصلي هذا هو اجتهاد مخدر سلبي، يسعى إلى اقناعنا ان الهزيمة كانت غدرة من عالم الغيب لا نستحقها وبالتالي لا حاجة لعلاج ولا لاعادة نظر في نقاط الضعف والقوة.

٢. الراجح ان الانفعال التنصلي الآنف قد استنفذ القسم الاهم من جهود معظم المسؤولين العرب، والقسم الضئيل الايجابي الذي تحول لمواجهة العيوب وعلاجها لم تبد نتائجه بعد بصورة مطمئنة. والمأمول الا يكون الانفعال العسكري حظه من الالتفات كحظ الانفعال السياسي والذي يتصرف كأن العرب لم يبلوا بعد بهزيمة جارحة مؤلمة. هذا رغم تشاؤمنا وامتعاضنا من تعثر العمل على توحيد القيادات، أو جعل الضمان الجماعي حقيقة عملية لا ورقية، الأمر الذي لو آمن المسؤولون العرب بالسبب الرئيسي لهزيمتهم لكان أول وأهم خطوات العلاج.

٣. هناك اجتهاد يدعي ان نقص السلاح كان السبب الاول للهزيمة العسكرية، هذه الدعوى غير صحيحة لسببين: الاول ان مصادر السلاح لم تكن مغلقة كليا في وجه العرب ولم يكن الامر ليحتاج لسوى جهد عادي لتأمينه، والسبب الثاني انه يمكن القول بصورة عامة ان وضعية السلاح وفي اغلب الحالات كانت قوة النار عند العدو، مدفعية مؤثرة بينما كان جيش الانقاذ مثلا يستخدم مدفعية مؤثرة ناهيك عن الجيوش العربية الرسمية. هذا مع الاشارة إلى ان قوة النار العربية كان يبعثرها سوء القيادة وقلة الضبط وانعدام الاوامر.

٤. هناك اجتهاد يلقى اللوم على الهدنة. ان الاستعداد لقبول الهدنة من عدمه هو جزء من محصلة الجهد العسكري هذا ومن جهة اخرى من المعلوم ان الانهاك أصاب العرب كما اصاب العدو، والفائدة الملموسة الوحيدة التي استفادها العدو هو نجدة القدس الجديدة بعد ان اوشك الجيش العربي على احتلالها، بالنسبة لحجم الجيش العربي نشك كثيرا في احتمال المحافظة عليه من هجمة معاكسة، هذا مع العلم ان احتلال القدس الجديدة من قبل الجيش العربي لا يغير في الوضع العسكري العام تغييرا حريا بالاعتبار بالنظر لضعف قوة التعرض عند مجموع القوى العربية.

بالاضافة إلى هذه الاجتهادات هناك اجتهادات ثانوية في مستوى لو ولولا، ولو سلح الفلسطينيون، لو لم ينسحب الجيش الفلاني من المكان الفلاني، إلى اخر هذه الاجتهادات المتمنية. لا اجد حاجة لبحثها وتفنيدها واتركها لشرحي الاخير عن اسباب الهزيمة العسكرية.

أسباب هزيمة العرب العسكرية في فلسطين (٢)
العمل كان ينقصه التقدير الفني العسكري
عدوى التجاهل والإهمال اصابت المسؤولين العرب

بقلم: وصفي التل

أسباب الهزيمة

أولا: سوء تقدير الموقف

ان تقدير الموقف بدقة وروية ركن اساسي يجب ان يسبق المشروع في اي عملية حربية يراد لها النجاح، والاغلبية الحربية لا تختلف من هذه الناحية عن اي مشروع بشري آخر لا بد لتأمين نجاحه من دراسة أولية موضوعية للظروف والامكانيات قبل البدء عمليا بالمشروع، والحرب بداهة ليست مشروعا عاديا بالنظر لعمق وشمول أثرها وخطورة نتائجها وعظم خسائرها، وعلى هذا فان تقدير الموقف للحرب خطير خطورة الحرب نفسها على اعتبار ان دقته هي ركن النجاح الاول.

وتقدير الموقف هذا عبارة عن دراسة تجارية دقيقة إلى حد اللؤم لكافة امكانات الجهد العسكري الشامل الذي يخصنا أو يخص العدو، وهو يشمل الامكانات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وكفاءة القيادة وعدد الضباط والجنود ومستوى تدريبهم وتسليحهم وامكانات السلاح والتموين والنقل والمواصلات، وامكانات حشد هذه الامكانات مع تقدير للظروف النفسية في البلد ومختلف ردود الفعل للحرب والانفعالات المختلفة داخلية كانت ام خارجية مع دراسة كل هذه الامكانات وعكسها على الوضع الجغرافي الارضي، ومن ثم بحث في كل الاحتمالات الممكنة سيئة كانت ام مفيدة وطرق مواجهة هذه الاحتمالات، ولا بد من التأكيد أن هذه الدراسة يجب ان تكون موضوعية إلى درجة المبالغة، ويجب ان يبذل المستحيل لجعل الدراسة عن المجهود العسكري للعدو أوضح وادق ما يمكن وطبيعي ان هذه الدراسة يجب ان تغلق في وجه

العواطف ودواعي التفاؤل المثيرة، كما انها يجب ان تتقيد بالتعريف العسكري الفني لحدود المجهود العسكري وامكانات النفير السوقي، وان تضرب عرض الحائط دواعي التمنيات والاحلام والخرافات.

على ضوء تقدير الموقف هذا يجري النفير السوقي، ومواضعه ونقاط التماس وصفحات العمليات وتطورها وبالتالي توزيع القوات ووضع الخطة العامة للقتال.

ان تقدير المسؤولين العرب للموقف كان ابعد ما يكون عن الصحة، حتى ليمكن القول انه لم يكن هناك تقدير موقف فني على الاطلاق، فلم تكن هناك اية دراسات دقيقة عن امكانات المجهود الحربي، وحتى في حالة وجودها لم تستخدم في تقدير الموقف ولم يكن هناك وزن لوضع القيادات والمقاتلين ووضع السلاح ومستوى الكفاءة العامة ودرجة السيطرة على الامكانات، معنى هذا ان المسؤولين العرب الذين قرروا غزو فلسطين لم يعرفوا مقدار رأسمالهم وقوة هذا الرأسمال وأثره، وزاد الطين بلة انهم قللوا من شأن المجهود الحربي للعدو إلى درجة مضحكة جعلتهم لا يهتمون بتقدير امكانات العرب، وعلى اعتبار ان هذه الامكانات مهما كانت قليلة ومشوشة فانها كافية لاحراز النصر.

خلاصة الامر ان تقدير الموقف من هذه الناحية قد نحا منحى غوغائيا عاطفيا لا اثر للروية فيه، واعتمد باساسه على بسالة العرب وجبن اليهود، وعلى قصص وخرافات واشاعات، وعلى هذا يمكن القول ان تقدير الموقف من قبل المسؤولين كان من السوء حتى اصبح اداة تضليل لا اداة قتال.

لقد ساعد على هذا التضليل العوامل التالية:

١. سوء الوضع السياسي الداخلي بفلسطين.

تصدعت الجبهة العربية الداخلية في فلسطين في السنوات القليلة الحساسة والخطيرة التي سبقت بدء القتال. وسيطر على الجو السياسي عمى وتعصب أشغل الجميع في المتاجرات الحزبية والزعامية بصورة الهت العرب عن الاستعداد والهتهم عن استعدادات العدو، وأرهبت جميع الذين لمسوا الوضع على حقيقته فاما يسكت أو يرهب أو يوصم بالخيانة، وسيطر التضليل فاخفى الواقع وانعكس ذلك على العرب خارج فلسطين فاخذوا هذا التضليل على انه الواقع.

٢. الجماعات والهيئات:

يؤسفني ان اقرر ان معنى الشجاعة الادبية قد انعدم كليا من الجماعات والهيئات المؤثرة في تلك الفترة، فمع رؤية هؤلاء الامر على حقيقته فانهم لم يحركوا ساكنا لتوضيح الأمور، وكان اكثرهم إما صامتا أو مندفعا في التطبيل والتزمير لهذا الضلال أو ذاك حتى اصبح الخطأ قناعة عامة عند معظم افراد الشعب العربي في فلسطين وخارجها.

٣. ميادين النضال الخيالية:

في هذا الوضع تمكن العدو من تضليل العرب في مجاهل بيزنطية وتمكن من توجيه انظار العرب إلى ميادين بعيدة عن ميادين العمل الحقيقي، وبينما كان العدو يستعد باستمرار عسكريا وطيلة الوقت للوصول إلى حل عسكري لقضية فلسطين انجر العرب إلى ميدان وهمي فتحه العدو امامهم وهو ميدان الكلام والدعاية والحق التاريخي والاستيعاب الاقتصادي ومقابلة الصحفيين الاجانب والادلاء بالتصريحات.

٤. التجاهل والاهمال:

الغريب ان المعلومات عنا وعن العدو كان أكثرها متيسرا عن جيوشنا واسلحتنا وامكانياتنا لم تكن بعيدة عن تناولنا، ولذلك فان معظم المعلومات الضرورية عن العدو لم تكن سرا.

لم يكن سرا ان العدو كان يتدرب عسكريا ولم يكن سرا انه يتسلح والارهاب الصهيوني في فترة الانتداب كان من الاحكام والدقة في التوجيه والقيادة بشكل يعلن بداهة عن مدى العزم العسكري لليهود رغم كل ذلك فلم تستخدم هذه المعلومات العسكرية في تقدير الموقف.

واصابت عدوى التجاهل والاهمال المسؤولين العرب خارج فلسطين، ولهذا لم تجر اية محاولة من قبلهم لمعرفة الامور كما في الواقع والاستعانة بهذه المعرفة الواقعية في عملية تقدير الموقف.

ثانيا: نقص الإستعداد العسكري

ان سوء تقدير الموقف بالصور التي أوضحت دليل على انعدام الاستعداد وحجز وتثبيط لاي محاولة للاستعداد. فمع ان العرب كانوا يهددون بالحرب في كل مناسبة، فان التهديد لم يتعد مرحلة الكلام ولم يبذل اي جهد معقول للاستعداد للحرب. ففي داخل فلسطين منع التصدع الداخلي اي استعداد مؤثر في الناحية العسكرية من تدريب وتسليح وفي خارج فلسطين بقي الاستعداد العسكري اما مجمدا بتأثير النفوذ الاجنبي أو بسبب الجهل والاهمال، وكانت الصبغة المؤثرة بالجيوش العربية هي صبغة نفوذ القيادات القديمة التدريب، أو التي ورثتها الجيوش العربية عن عهود الاستعمار السابقة، هذه القيادات العاجزة لم تكن اهلا للوصول بأية معركة إلى نصر ولم تكن قادرة على تقدير الموقف، وليس باستطاعتها الاشراف على مستوى تدريب ناجح للضباط والرقباء والجنود، ولا تستطيع اختبار السلاح ورفع مستوى التسليح، هذا بالاضافة إلى ان أقصى تجربة لهذه القيادات كان في عمليات بوليسية أو مناورات غير متقنة وفي الاستعراضات والمراسيم.

ان التجربة القتالية الوحيدة كانت من نصيب الذين قاتلوا بالثورات المختلفة، وبصورة خاصة ثورات فلسطين، مع العلم ان التجربة القتالية في الثورات لا تنطبق كليا على القتال المنظم إلا أن المؤسف أنه حتى هذه التجربة الثورية لم يستفد العرب منها ومن دروسها ذلك أن حديث البطولات والامجاد والاستشهاد طغى على الصورة ومنع العرب من دراسة الاخطاء والعيوب.

أقول هذا لا انقاصا من قدر الابطال والشهداء الذين يفرضون علينا الاجلال والخشوع لقدرهم وذكرهم، ولكن الحرب غايتها النصر وليس التغني بالبطولات، والذي غايته النصر عليه ان يدرس الاخطاء ونقاط الضعف ويعمل على تلافيها وتحاشيها، ففي ثورة فلسطين لم تدرس مثلا الاخطاء التعبوية التي وقع بها الثوار، ولا سيطرة الفوضى على المعارك ولا ميوعة الامر بصورة ان دورية كانت في بعض الاحيان تهزم عصابة كبيرة، ولم يدرس مبدأ الاقتصاد بالقوى وضبط المعركة إلى اخر هذه المبادىء التي لها قيمة تدريبية كبيرة.

اما العدو فقد بدأ استعداده منذ الحرب العالمية الاولى وبدأ بتشكيلاته العسكرية منذ الانتداب، ومنذ تشكيل حرس المستعمرات بقيادة وتدريب وبحث، واغتنم فرصة الحرب الثانية فالتحق معظم القادرين بالجيش البريطاني وحاربوا في ايطاليا كلواء يهودي مستقل.

هذا بالاضافة لتدريب مستمر لا ينقطع كان يقوم به شبان المدارس والمؤسسات والنوادي اليهودية، ومن ثم اتخذوا من الارهاب وسيلة التمرين ودراسة الاخطاء.

وكان تسلح العدو مستمرا طيلة الوقت، وكما هو معروف لم يكن يمضي عام واحد دون ان يكتشف للعدو شحنة سلاح كبيرة اما القسم الاكبر من الشحنات فقد بقي دون ان يكتشف.

أسباب هزيمة العرب العسكرية في فلسطين (٣)

تعدد القيادات انكار لابسط الاسس العسكرية طريق التأر للهزيمة معروف : أوله الوحدة وثانيه الاستعداد

بقلم: وصفي التل

بالاضافة إلى تفوق العدو في مستوى التدريب والاستعداد العسكري فلا بد من الاعتراف ان مستوى قواته المسلحة من حيث التعليم والثقافة كان على مستوى القوات المسلحة العربية، ولا شك أن هذه الناحية كانت من أولى النقاط التي رجحت كفة قوى العدو على القوى العربية، إذ كما هو معلوم إن الحرب الحديثة حرب أوامر وخرائط وتعقيدات تحتاج إلى مستوى ثقافي ادنى لا بد من وجوده لسير العمليات بصورة ناجحة. والجندي المتعلم يسهل تدريبه وتعظم الاستفادة منه والأمر نفسه ينطبق على الرقباء والضباط. اما القيادات والاركان التي من ضروراتها المستوى الفني العالي وسعة الافق والابداع فان المستوى الثقافي والتعليمي أمر خطير لا يمكن تجاهله.

من هذه الناحية كان الاستعداد العربي مؤسفا وكانت القيادات والادارات المعادية متفوقة بشكل واضح أمن لها المبادرة طيلة العمليات في فلسطين.

من مظاهر سوء الاستعداد العربي الامور التالية:

١. نقص تدريب الجنود والضباط.
٢. انعدام الضبط.
٣. قبول مبدأ القيادات المتعددة.
٤. مشاكل التموين والتسليح.
٥. انعدام مبدأ الاقتصاد بالقوى وتركيزها.
٦. تعاسة خطة القتال العامة.
٧. بدائية زحف الجيوش العربية وتلكؤها وترددها وبعدها عن أي أساس فني.

٨. هزيمة القوى العربية في معظم المعارك المكشوفة المرنة التي تحتاج للمناورة والاقدام والحركة الفنية.
٩. اللون البدائي اللافني للقتال في أغلب نواحيه.
١٠. تعثر خدمات الادارة والمواصلات والتموين.

والخلاصة أن العرب دخلوا الحرب كمجاهدين لا جنود وفي عرف الحرب الحديثة هناك فرق كبير بين المجاهدين والجنود وخصوصا ان الاعتماد على روح التضحية والشجاعة المنتجة المستمرة هي التي تؤدي إلى النصر.

ثالثا: تعدد القيادات

لقد أشرت في البند السابق إلى أن تعدد القيادات والقبول بمبدأ التعدد إنكار لابسط أسس الفن العسكري لما في ذلك من بعثرة للجهد وتشويش وتضارب على ان المؤسف انه رغم مصيبة التعدد فان هذه القيادات لم تكن تتعاون في العمليات في بعض الاحيان، كانت تكتم المعلومات عن بعضها ناميك عن الزحام على القيادة العامة وعلى النفوذ، وعلى الشكوك والمخاوف التي تكنها كل قيادة تجاه الاخرى حتى وصل الامر إلى درجة ان العدو كان يحشد قواته كلها لقتال جيش عربي واحد ويهمل الجيوش العربية الاخرى التي كانت تقف وقفة المتفرج مع أن ابسط القواعد في القتال تقضي بترتيب التعريض وتوقيعه بصورة لا تمكن العدو من حشد معظم وقته في مركز واحد.

رابعا: سوء خطة القتال

إن سوء خطة القتال التي دخلت الجيوش العربية فلسطين بموجبها كانت منطقية لسوء تقدير الموقف ولسوء الاستعداد والتدريب وتعدد القيادات وشكوكها. على الرغم من كل الاخطاء والعيوب والنواقص التي سردتها حتى الان بقي زمام المبادرة بالقتال بيد العرب، ولكن خطة الزحف افقدت العرب

الزمام. ان الخطة انكار لمبدأ تركيز القوى في الحرب وتجاهل للاسس السوقية الحديثة التي كانت كل معركة من الحرب الثانية تضرب عشرات الامثلة عليها، وكانت معروفة التفاصيل حتى من الصحفيين.

هذا بالاضافة إلى أن زحف كل جيش عربي كان بحد ذاته متلكئا خاطئا اتصف بحذر لا مبرر له، وعلى هذا الأساس لم يوقت التعرض ومكن العدو من معالجة كل زحف على حده وايقافه في أكثر الأحيان عن حده. هذا بالاضافة إلى طبيعة الخطة نفسها لم تكن تقصد أو تستطيع التوصل إلى قرار حاسم في معركة حاسمة مما جعل الزحف باهظ التكاليف من حيث الذخيرة والجهد، واستنزفت الجيوش العربية معظم قواها في معارك ثانوية لا يمكن ان توصل إلى نتيجة حاسمة. ولهذا سرعان ما بدأت الجيوش العربية تطلب المدد بالجند والسلاح وقبل ان تتوصل إلى اي هدف سوقي رئيسي.

خامسا: فقدان الأمن وزمام المبادرة

أشرت إلى أن سوء الخطة أفقد العرب زمام المبادرة الذي تسلمه العدو وأخذ يتصرف بعملياته بحرية، وفرض على أغلب القوى العربية وضع المدافع المستكين الخائف الذي لا يقوم بأية عملية تعرضية، وإنما ينتظر دوره للضربة التي سيوجهها العدو، إن انتزاع العدو زمام المبادرة كان ايضا نتيجة منطقية لسوء التدريب وتعدد القيادات والخطة والمستوى العقلي والفني للقيادات وقيادات المقطعات.

وقد حافظ العدو على زمام المبادرة، هذا طيلة القتال وإلى ما بعد الهدنة الثانية بسبب تفوقه بالتدريب والمستوى العقلي وبالتالي تفوقه في الحركة والمناورة، وتوقيت التعرض وانقلب من الدفاع القلق إلى الهجوم الواثق.

وساعد العدو على الاحتفاظ على هذا الوضع الممتاز ضعف أجهزة الأمن السوقي في البلدان العربية والقيادات العربية، ولهذا كان جهاز استخبارات العدو ناشطا كل النشاط، وتمكن من إعطاء العدو صورة قريبة من الدقة عن هذا

الوضع العسكري العربي وعن العمليات العربية قبل حدوثها، مما سهل قتاله كل التسهيل، يقابل ذلك أن أجهزة الاستخبارات العربية لم تحصل على أية معلومات ذات أهمية في أغلب الأحيان وفي حالة حصولها على معلومات كانت لا تستطيع الاستفادة منها، وفي بعض الأحيان لا تشارك بهذه المعلومات أجهزة الاستخبارات للقيادات العربية الاخرى.

هذا حسب اعتقادي أهم الاسباب التي أدت إلى هزيمة العرب العسكرية في فلسطين. ويلاحظ القارىء اني لم اتطرق إلى الاسباب الثانوية التفصيلية من سيطرة الاهداف العاطفية على الاهداف السوقية في القتال، وفوضى الاتهامات وتبادلها بين العرب في فلسطين وخارج فلسطين، وكذلك لم اتعرض إلى دعاوي الخيانات والتواطؤ لقناعتي التامة بان جهدنا العسكري وقتئذ كما هو وبدون خيانات أو تواطؤ أو مؤامرات استعمارية لم يكن كافيا لاحراز النصر ودفع الكارثة، وعلى أي حال فان افساح المجال للخيانات والتواطؤ والعجز والجبن هو جزء من سوء الاستعداد وسوء الاحتياط ومن الجريمة ان نلقي ثقل التهمة على جهة ما قبل ان نسأل انفسنا ماذا فعلنا نحن أولا؟ هل قمنا بكل الواجب المفروض حتى نتطلع إلى خارج انفسنا لمعرفة أسباب الهزيمة؟

خاتمة

ليس الطريق الذي سلكه العدو حتى هزمنا في الجولة الاولى بالطريق المجهول ولا هو بالطريق الجديد، وكذلك لم يأت العدو بمجزرة نقف حيالها مذهولين واجمين وان جزءا يسيرا من امكانات الوطن العربي إن احسن استخدامه كفيل في كل وقت بالقضاء المبرم على الخطر الذي اغتصب جزءا من بلادنا. لقد كانت التجزئة وما زالت ركن الهزيمة الاولى وعنوان الضعف، اما طريق الثأر للهزيمة فمعروف. مجموع أوليات وبديهيات أولها الوحدة وثانيها الاستعداد. وطريق العلاج يبدأ بالوحدة ثم بالتدريب والاستعداد على نفس الاسس ونفس الطريق التي تبعها العدو.

انتهى

وصفي التل

الخط العجيب

لعله يكون من المناسب في مستهل الكتابة عن (الفردوس السليب)، أن يحصل المرء على صورة طبق الاصل لهذا الخط الوهمي الذي يفصل بين المناطق التي احتلها اليهود بمؤازرة الدول الكبرى وتخاذل الدول العربية، وبين القسم الباقي من فلسطين .

لقد رسمت لجنة الهدنة خطا طوله ٦٢٢ كيلو مترا يفصل عرب فلسطين عن أراضيهم، وهو يبدأ من شمال الحمة ونهر اليرموك ثم ينحدر مع الاردن جنوبا ثم ينحرف إلى الغرب فاصلا بيسان عن طوباس، ويسير غربا حتى يحاذي جنين إلى قرية رمانة في الشمال الغربي ، ثم يشطر قرية برطعة في جوار مركز بوليس كركور وللغرب من أم الفحم إلى شطرين، وبقي مختار القرية يطبع ختمه على معاملات الشطرين - العربي واليهودي -، ثم ينحدر الخط إلى الجنوب فيمر من محطة طولكرم إلى محطة قلقيلية ثم ينحرف إلى الجنوب الشرقي فيمر من غربي قرى قبية ، وبدرس ، عمواس ، قطنة ، اللطرون ، ثم يشكل جيبا يدخل في الجسم العربي إلى ان يصل إلى القدس فيشطرها شطرين من الشمال إلى الجنوب ، وبذلك اعطيت لليهود جميع الاجزاء العربية الحديثة التي كانت نتيجة الاجتهاد العربي الاقتصادي خلال الخمسين سنة الماضية . وفي قرية بيت صفافا يشطر خط الهدنة المستشفى إلى شطرين، واكثر من هذا فان رجال الهدنة حرصوا على أن يكون خط سكة حديد يافا - القدس في القسم اليهودي فرسموا خط الهدنة متعرجا حتى مزق بيوت قرية بتير فجعل كثيرا من المساكن والحدائق ومدرسة القرية في المنطقة المحتلة، ثم يعود الخط فيبتعد إلى الغرب إلى أن يمر من خربة البرج بقضاء الخليل، حتى يفصل المراعي والمزارع وبئر الماء الوحيدة التي يستقي منها أهل القرية ولا تبعد أكثر من (٥٠ مترا) ثم يقترب من بيت أولا - ترقوميا - الظاهرية وفي قرية بيت مرسم عمل مختار القرية كل ما في وسعه لان تبقى مضافته تابعة لبيته بعد أن جرده خط الهدنة من أملاكه، ثم يتجه الخط إلى الشرق

حتى يشطر البحر الميت إلى شطرين، ويمتد إلى غور الصافي إلى وادي عربة إلى الرشراش على رأس خليج العقبة الذي أصبح اسفينا يفصل بين البر الشامي وشقيقه المصري.

وقد سلخ خط الهدنة جميع قرى اللواء الجنوبي والبيارات والاراضي ولم يبق منه الا قطاع غزة، وهو لسان طويل طوله ٤٠ كيلو مترا تقريبا وعرضه يتراوح بين ٣-٨ كيلو مترات ويسكنه حوالي ٤٠٠ الف شخص بين لاجيء ومقيم وتشرف عليه الادارة المصرية.

(بعض) مخلفات النكبة

قبل دخول الجيوش العربية فلسطين عام ١٩٤٨ كان العرب فيها يبلغون حوالي مليون وربع المليون .. ضاعت املاك وبيوت ٨٠٠ الف منهم، وضاعت أملاك ٢٠٠ الف تقريبا، وبقيت بيوتهم وبقي ١٥٠ ألفا في المنطقة المحتله وبقي مائة الف فقد معظمهم أراضيهم ويطلق عليهم (المنكوبون) اي سكان القرى الامامية .

وكانت مساحة فلسطين ٢٦ مليونا و ٣٠ الف دونم، منها لليهود مليونان من الاراضي الخصبة، في حين كان للعرب ١٢ مليون دونم أراض خصبة .. ولم يبق لهم الا ثمانية ملايين دونم من الاراضي الجبلية بين متروك ومزروع .

وكانت مساحة الارض المزروعة حمضيات ٢٣٦ الف دونم للعرب منها ١٢٢ الف دونم خسروها كلها .

اما مساحة الزيتون المثمر فكانت ٦٠٠ الف دونم لليهود منها ٦٪، وقد خسر العرب ثلاثة أرباع الزيتون، ومساحة أرض العنب كانت ١٧٧ ألف دونم لليهود منها ١٤٪ وقد خسر العرب نصف كرومهم .

أما حقول الموز فكانت ثمانية الاف دونم للعرب اغتصب منها خمسة الاف، فلم يبق لهم الا ثلاثة الاف في أريحا.

وكان للعرب ٢٢٣ الف دونم تنتج ١٩٠ الف طن من الخضار، مقابل ٤٠ الف دونم لليهود، ولم يبق للعرب اكثر من ٢٠٪ من مزارع الخضار الكثيفة.

أما مزارع الدخان فكانت ٢٨ الف دونم تنتج سنويا ١٦٠٠ طن قيمتها ٣٠٠ الف جنيه يفقد العرب ٩٪ منها .

وكان للعرب ١٧٠٠ نول من انوال الحياكة في المجدل وحدها، ومعدل الانتاج اليومي للنول الواحد (١ يارد)، وكانت أنوال يافا وعكا الميكانيكية تنتج ما قيمته نصف مليون جنيه، وكان الغزل الذهبي يغزل في اليوم طنين من الغزل ويستخدم ٤٠٠ عامل ويضم عشرة الاف مغزل، وكلف انشاؤه خمسين الف جنيه، وقد ضاعت جميع هذه الثروة وكان للعرب ٣١٠٠ سيارة منها ٥٤٠ سيارة باص خسروا ٦٥٪ منها .

وكانت للحكومة المنتدبة أملاك تقدر بقيمة مائة مليون جنيه معظمها في الجزء المحتل .

وكان لدوائر الحكومة ٥٤ عمارة ضخمة بقي للعرب منها تسع عمارات .

وأعظم صدمة بعد هذه الخسارة هي وجود هذه الثغرة أو السهم الفاصل بين مصر والبلاد العربية الأخرى مما أضعف حركة الاتصال بين أجزاء الوطن العربي الواحد .

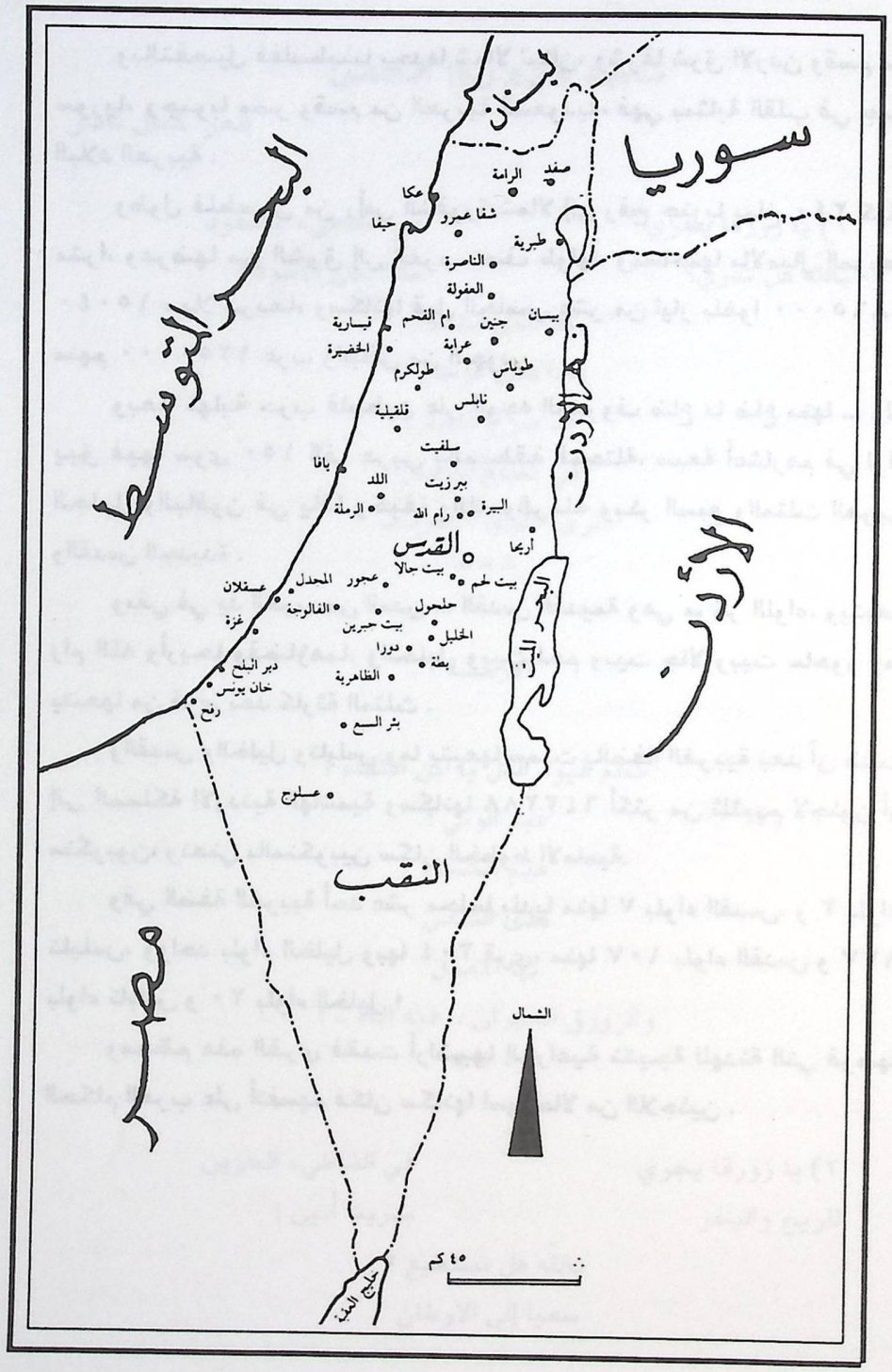

فلسطين حسب حدودها اثناء حكم الانتداب البريطاني

هذه فلسطين تنساني يميني ان نسيتها.

هذه البقعة من عالمنا العربي .. والتي عرفت منذ أقدم العصور بانها مهبط الوحي الالهي . ومهد الانبياء والتي هاجر اليها جد الانبياء ابراهيم الخليل عليه السلام من اور الكلدانيين .. والتي ولد فيها السيد المسيح واسرى بمحمد بن عبد الله اليها هي فلسطين .

عرفها العرب .. فأصبحت عربية منذ أن فتحها القائد البطل عمرو بن العاص أيام خلافة الفاروق عمر بن الخطاب في العام الثالث والعشرين للهجرة، ومنذ ذلك التاريخ اي منذ ١٣٥٥ عاما وهي عربية رغم الاحداث والحروب التي جرت فيها .. حتى كانت الحرب العظمى التي بدأت عام ١٩١٤م وانتهت عام ١٩١٨م، وبنهايتها دقت بريطانيا اسفينا في قلب بلادنا العربية - فلسطين - فكان وعد بلفور .. وتلك النواة التي زرعت فأثمرت .. فكانت النهاية ان تأسست دولة إسرائيل على انقاض عرب فلسطين !!

أنظر إلى خارطة فلسطين وتأمل في حدودها قبل الخامس عشر من أيار عام ١٩٤٨م لتظهر لك بحدودها الطبيعية كما يلي:

أمامك من جهة الغرب البحر الابيض المتوسط .. ولهذا البحر ذكريات أهمها ذكريات السفن الاتية من اوروبا تحمل جنود الصليبين وتلقي بهم على الشاطيء لانتزاع فلسطين من العرب، في حرب تدوم مائتي عام تنتهي بهزيمة الغزاة ... فالبحر هو الحد الغربي لفلسطيننا السليبة !

ومن الشرق يحدها نهر الاردن ... وبه ذكريات عود إلى أيام السيد المسيح الذي تعمد فيه وعمد تلاميذه ... ثم بحيرة الحولة وبحيرة طبريا والبحر الميت وخط يمتد من البحر الميت مخترقا وادي عربة إلى خليج العقبة .

ومن الجنوب خط يمتد من العقبة إلى رفح إلى البحر الابيض المتوسط، ومن جهة الشمال خط يمتد من رأس الناقورة إلى (يارون) فبنياس شمالا .

وبالتفصيل ففلسطيننا يحدها شمالا لبنان، وشرقا شرق الاردن وقسم من سوريا، وجنوبا مصر وقسم من العربية السعودية، فهي بمثابة القلب في جسم البلاد العربية .

وطول فلطسين من رأس الناقورة شمالا إلى رفح جنوبا يبلغ ٢٤٠ كيلو مترا، وعرضها من الشرق إلى الغرب نصف طولها، ومساحتها بالاميال المربعة ١٥٠٤٠ ميلا مربعا، وسكانها قبل الخامس عشر من ايار بلغوا ١٨٦٥٠٠٠ منهم ١٢٥٠٠٠٠ عرب والباقي من اليهود.

وبعد نهاية حرب فلسطين على الوجه المعروف ضاع ما ضاع منها ... ولم يبق فيها سوى ١٥٠ الف عربي بالمنطقة المحتلة، سبعة أعشارهم في لواء الجليل والباقون في يافا وحيفا واللد والرملة وبئر السبع والمثلث العربي والقدس الجديدة .

وبقي في يد العرب من المدن ... القدس القديمة وهي مركز اللواء، ويتبعه رام الله وأريحا وقضاؤهما، والخليل وبيت لحم وبيت جالا وبيت ساحور وما يتبعها من قرى بعد كارثة المثلث .

والقدس والخليل ونابلس وما يتبعها سميت بالضفة الغربية بعد أن ضمت إلى المملكة الاردنية الهاشمية وسكانها ٦٤٣٢٨٨ أكثر من ثلثيهم لاجئون أو منكوبون، ونعني بالمنكوبين سكان الخطوط الامامية.

وفي الضفة الغربية أحد عشر مجلسا بلديا منها ٧ بلواء القدس، و ٣ بلواء نابلس، وواحد بلواء الخليل وبها ٣٠٤ قرى، منها ١٠٧ بلواء القدس و ١٧٧ بلواء نابلس و ٢٠ بلواء الخليل !

ومعظم هذه القرى فقدت أراضيها الزراعية نتيجة للهدنة التي فرضها الحكام العرب على أنفسهم فكان سكانها اسوأ حالا من اللاجئين .

نشيد الزورق الحائر

شعر: كمال ناصر

١) يا زورقا يجري في الشاطيء المفقود
باللّه هل تدريّ؟ ماذا دهى الأسود !
ماذا دهى الشباب !
ماذا دهى الرجال ؟
قد صرخ العذاب
في مسمع النضال
ترى ! ترى ! نعود ...

* * *

الازمـــة

حطم قيود الذل يا ابن الشقاء !
فيم الوني !
فيم الكسل
هذى الدنـــي
بها الامـــل
والزورق الحيران ، فيه اباء .. !

* * *

٢) يا زورقا يجري في الشاطيء الحزين
للريح والبحر بدربنا أنين !
باللّه هل تستطيع ؟
سعيا إلى الاوطان

شراعك الصريع
يعزه الربان ...
لكنه الحنين ...!

* * *

٣) يا زورقا يجري
غدا بنا تسرى
في شاطيء القيود
طلائع الجنود
فلم تزل فينا
شرارة الشعب
تفدي فلسطينا
من ذلك الخطب
وتحفظ العهود !

* * *

٤) يا زورق النجاة
هل تنطوي الحياة
مرساك في الضلوع
ولا أرى الربوع
ذابت به الشموع
فتاه في خطاه
وسالت الدموع
فلم أعد أراه
قد غاب ... للرجوع !

المدينة المقدسة منذ أن بدأ التاريخ يسجل

يستدل من كتب التاريخ على أن العرب هم بناة القدس الأولون، فالتاريخ يقول: نزحت قبيلة عربية عرفت باليبوسيين من جزيرة العرب قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام واستوطنوا فلسطين مع القبائل الكنعانية وكان هؤلاء الأواخر أكثر عددا مما دعا فلسطين أن تسمى بأرض كنعان ..

وأول من اختط القدس وشرع في بنائها ملك اليبوسيين العرب (ملكيصادق) قبل الميلاد بنحو ثلاثة الاف عام.

وقيل عن هذا الملك أنه كان تقيا جدا يحب السلام ويكره الحروب وإراقة الدماء، فسميت المدينة (شالم) كما جاء في التوراة ومعناها بالعربية سالم.

وملك اليبوسيين (سالم اليبوسي) زاد في بنائها وشيد على الهضبة الجنوبية المعروفة اليوم بجبل صهيون برجا حصينا للدفاع عن المدينة، ثم عرفت بعدئذ باسمها الكنعاني أورسالم اي مدينة السلام.

ولم يعرف اليهود القدس ولم يدخلوها الا في أيام داود وسليمان غير أن صلة اليهود بها لم تطل كثيرا، فقد غزاها البابليون بقيادة نبوخذنصر الذي أجلى اليهود عن القدس وفتك بهم فتكا ذريعا وسباهم إلى بابل وأحرق هيكل سليمان ونهب المدينة.

وقد كانت القدس مسرحا للمعارك خلال العصور الغابرة بين الكنعانيين والفراعنة .. وبين البابليين والفرس واليونان، حتى آلت آخر الأمر إلى حكم الرومان .. ذلك الحكم الذي شهد ظهور المسيح عليه السلام.

وأول من دخلها من الرومان بعد حصار طويل القائد الروماني بومبي قبل الميلاد بثلاثة وستين عاما.

وكان الفرس قد اعادوا اليهود بعد انتصارهم على البابليين، غير أن اليهود كانوا في أكثر أحيان عرضة لنقمة الرومان لكثرة ما كانوا يشاغبون.

وأشد أيام اليهود هولا كانت في عهد تيطس الروماني الذي حاصر القدس عام ٧٠م واحتلها عنوة .. وقتل اليهود، ومن أسره باعه بيع العبيد، ولم يعرف التاريخ اليهودي مثيلا لنكبة اليهود اكثر من نكبتهم هذه.

وكأن الله أراد معاقبتهم على إجرامهم بحق الانبياء وسوء معاملتهم مع السيد المسيح، ففي عام ٨٠م عاد المسيحيون للقدس وحرم على اليهود دخولها.

وفي عام ٣١٣م تنفس المسيحيون بعد اضطهاد من قبل اليهود والرومان، وكان ذلك في عصر الملك قسطنطين الثالث الذي اعتنق النصرانية .. ثم زارت أمه الملكة هيلانة القدس وبنت فيها كنيسة القيامة عام ٣٣٥م، وفرض قسطنطين النصرانية على اليهود فمن لم يتنصر قتل أو هرب من البلاد.

وجاء بعد قسطنطين من تنكر للنصارى وانتصر لليهود، حتى كان عام ٦٢٩م اذ حضر هرقل ملك الروم إلى القدس حاملا على كتفه خشبة الصليب التي استردها من الفرس في انتصاره عام ٦٢٧م.

وانتقم من اليهود ناسبا كل بلاء للنصارى إلى اليهود وهو صادق، فاليهود أساس الشر، جاء في القرآن الكريم (**آلم. غلبت الروم. في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون.**)(سورة الروم آية ١-٣).

ويفسر علماء المسلمين أن هذه الآية خاصة بانتصار هرقل على الفرس، وأن المسلمين فرحوا بانتصار الروم وهم نصارى أهل كتاب على الفرس عبدة النيران.

وفي أيام هرقل .. جاء العرب المسلمين من الجزيرة العربية فاحتلوا فلسطين.

وتفكير المسلمين بفتح القدس يعود إلى أسباب دينية فاليها اسري بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومنها عرج إلى السماء وجاء ذكرها في قوله تعالى: (**سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا الذي باركنا حوله**). صدق الله العظيم (سورة الاسراء آية ١).

والمسجد الحرام بمكة المكرمة والمسجد الاقصى في القدس. وقد كان المسلمون يتوجهون بصلواتهم إلى المسجد الاقصى قبل أن يؤمروا بالصلاة متجهين للكعبة المشرفة، ولذا كانت القدس أولى القبلتين وثالث الحرمين.

ولما اقتربت جيوش المسلمين من القدس أقفل الروم الأبواب وحوصروا في المدينة، وبدأت الحرب ولكن دون نتيجة، فقد اقتصرت على النبال والحجارة ولم يلتحم الجيشان في حرب الا عندما يخرج بعض فرسان الروم للبراز.

واضطر المسلمون في حصار المدينة الذي دام أربعة أشهر إلى تحمل الكثير من المتاعب، كما ضاق السكان بطول الحصار فقرروا التسليم على شرط أن يتولى استلام المدينة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

وكان هذا بناء على طلب البطريرك صفرونيوس.

* * *

وأرسل القائد ابو عبيدة عامر بن الجراح رسالة إلى الخليفة عمر بن الخطاب يذكر فيها شروط البطريرك، ويطلب اليه الحضور حقنا للدماء.

ووصل الكتاب للخليفة فعقد مجلسا شوريا استشار أهل الرأي فاستصوبوا رأي ابي عبيدة وغادر الخليفة المدينة المنورة .. حتى وصل إلى مخيمات الجند التي قيل انها كانت على جبل الزيتون.

وأرسل القائد للبطريرك يخبره بقدوم الخليفة .. فأسرع مع جمع من القساوسة والرهبان والصليب المقدس على صدره.

عمر ينشر العدل بالقدس ويطرد اليهود منها

ولما اقترب البطريك صفرونيوس وحاشيته من المعسكر، خف الخليفة عمر بن الخطاب والقادة العسكريون للقائه بكل احترام وتواضع وتقابل رجلا السلام في أرض السلام.

وبعد المحادثات بأمور المدينة المقدسة وتسليمها والاتفاق على الشروط طلب البطريق عهدا من الخليفة عمر بن الخطاب فكتب الوثيقة المعروفة بالوثيقة العمرية، والتي لا تزال تحفظ في كنيسة القيامة منذ ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن، وهذا نصها:

(بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايليا -اسم القدس حينذاك- من الأمان.

أعطاهم أمانا لانفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها وسائر ملتها، انه لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صلبهم ولا شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن (ايليا) معهم أحد من اليهود، وعلى أهل ايليا أن يعطوا الجزية كما تعطى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص.

فمن خرج منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل ايليا من الجزية، ومن أحب من أهل إيليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، فمن شاء منهم قعد، وعليهم ما على أهلي ايليا من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله، فانه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصدوا حصادهم.

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء المؤمنين اذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

كتب سنة ١٥ للهجرة.

شهد على ذلك : خالد بن الوليد، عبد الرحمن بن عوف، عمرو بن العاص، معاوية ابن أبي سفيان.

* * *

بعد أن تعاطى الفريقان العهود والمواثيق دخل عمر بن الخطاب القدس، فاستقبله البطريق صفرونيوس ودخل معه قرابة أربعة آلاف من الجنود من بينهم القادة.

وأول عمل قام به الخليفة عمر لدى دخوله القدس هو زيارة كنيسة القيامة، وصادف ان حان وقت الصلاة فأشار عليه البطريق صفرونيوس أن يصلي داخل الكنيسة قائلا .. (مكانك صل).

ولكن عمر أبى وخرج من الكنيسة إلى مكان قريب منها وصلى هناك خشية أن يأتي من المسلمين من يتخذ صلاة عمر في كنيسة القيامة ذريعة فيضع يده عليها.

وأدرك البطريك والنصارى غاية عمر من ذلك، فشكروا له عمله وقدروا له بعد نظره وتمسكه بالعدل وبالعهد الذي أعطاهم إياه.

وأثناء تجوال عمر بن الخطاب بالمدينة رأى آثار الخراب الذي أحدثه الحرب في هذه المدينة وخاصة ما أحدثته الفرس، فأمر بتنظيم المدينة ودون الدواوين وأسس الحسبة أي البلدية، فكان العرب أول من أسسوا البلديات وعين مفتشين على المكاييل والاوزان وأوصى بالعدل، وفي هذه الاثناء اتاه رجل من النصارى يكشو له جند المسلمين بأنهم أكلوا ثمرة كرمه العنب، فوبخهم فقالوا: الجوع يا أمير المؤمنين فلم نأكل عدوانا، وطلب من صاحب الكرم أن يقدر الثمر ثم دفع له ثمنه وصرفه باحترام.

واستقر الأمن بالمدينة المقدسة وساد فيها العدل، وعاش أهلها مع المسلمين حياة كلها صفاء وتوطدت أواصر المحبة والوفاق بين النصارى والمسلمين، فاليهود جلوا عنها بأمر من الخليفة بناء على طلب البطريك صفرونيوس، ونشطت حركة العمران والتنظيم حتى كان العام ٦٥ هجرية الموافق ٦٨٤ ميلادية وهو العام الذي تولى فيه الخلافة عبد الملك بن مروان، حيث أمر ببناء مسجدي الصخرة والأقصى وهما أعظم آثار بني امية في فلسطين، بل تعتبر عمارتا الصخرة والاقصى من مفاخر العرب في الشرق كله.

فقد رصد الخليفة عبد الملك خراج مصر سبع سنين لعمارة مسجد الصخرة، وزاد عن العمارة مبلغ مائة ألف دينار أوصى بها الخليفة للمشرفين على العمارة، رجاء بن حياة ويزيد بن سلام، الا أن هذين الرجلين رفضا ذلك وقالا: نحن أولى أن نزيد من حلي نسائنا فضلا عن أموالنا، فاصرفها في طريق آخر، فأمر الخليفة أن تسبك ذهبا وتفرغ على قبة الصخرة وأبوابها.

* * *

ليست لليهود في القدس مقدسات تاريخية فان قلاقلهم وشغبهم وكثرة المشاكل التي كانوا يثيرونها جعلت الفرس والرومان يهدمون الهيكل الذي بناه داود وأتمه سليمان.

وليس لليهود أي مكان يقدسونه سوى حائط المبكى، حتى المقبرة التي يدفنون فيها كانت وقفا اسلاميا سمح لهم المسلمون بدفن موتاهم لقاء جعل يدفعونه للاوقاف الاسلامية.

ففي الصفحة ٥٧٤ من السجل من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس وفي تاريخ سنتي ١٩٦٨م، ١٩٦٩م دفعوا مائتي دينار ذهبا.

أما حائط المبكى فالسائد أنه بقية من سور القدس القديم، وأنه الحائط الخارجي للهيكل الذي رممه هيرودس عام ١١ قبل ميلاد المسيح، ودمره تيطس الروماني بعد المسيح بسبعين عاما حيث أزاله من الوجود.

واليهود كانوا وخاصة في عهد الانتداب يزورونه بين كل آونة واخرى يبكون مجدهم الضائع في هذه المدينة المقدسة.

أما المسيحيون .. فقد حفظت لهم القدس مقدساتهم منذ أن وجد فيها السيد المسيح وقضى فيها مدة طويلة .. فآثاره لم تزل باقية تراها في معظم أحياء القدس القديمة.

كيف دخل اليهود إلى القدس وفلسطين؟

وعلى الرغم من الحروب التي جرت في القدس والبلاد المقدسة بين الشرق والغرب، وخاصة الحروب الصليبية التي اتخذت الدين طابعا لها فقد حفظت القدس كل أثر للمسيح وأمه العذراء.

فالمسجد الاقصى ومسجد الصخرة اللذان حولهما الصليبيون إلى كنيستين ظلا محتفظين بطابعهما الاسلامي حتى استردهما صلاح الدين الايوبي الذي دخل القدس دخولا لا يقل عن دخول الخليفة عمر بن الخطاب.

فقد عامل نصارى القدس معاملة كلها عدل ورحمة، ولم يمثل دور الفرنج الذين فتحوا وذبحوا في ساحة الحرم الشريف ما لا يقل عن خمسين ألف انسان.

ونستطيع من هنا وإلى الوراء بحوالي عشرين قرنا أن نقول: إن القدس مسيحية اسلامية أكثر منها يهودية فليس لليهود اثر باق قديم.

وكل آثارهم محدثة، ولم يخرب النصارى ولا المسلمون هيكل اليهود، بل خربه الرومان انتقاما من اليهود وشعب اليهود.

وكل حق يدعيه اليهود في القدس وغير القدس باطل يسنده باطل. ففي سنة ١٣٥ للميلاد وفي عهد أدريانوس دكت القدس دكا ومحيث آثار الهيود نهائيا.

وفي القرن الثالث عشر للميلاد زار القدس السائح اليهودي موسى بن نحمان جيروندي ولم يجد من اليهود فيها سوى عائلتين فقط.

وفي عام ١٥٧٢ للميلاد أحصى يهود القدس، فثبت أن في المدينة المقدسة مائة وخمسة عشر يهوديا فقط، منهم خمسة وخمسون في جهة الحرم الشريف، والباقون وعددهم ستون متفرقون.

ففي الصفحة ٢٠٧ من السجل ٥٥ من سجلات المحكمة الشرعية في القدس توجد اسماء هؤلاء اليهود.

ولم يظهر اهتمام اليهود بالقدس وفلسطين الا في أواخر القرن التاسع عشر، حيث ظهرت الفكرة الصهيونية بمؤازرة الانجليز، وتبعها بعد ذلك وعد بلفور وهو بداية الصراع بين العرب واليهود.

والخلافات بدأت أولا تحمل الطابع الديني اذ كان اليهود يدعون ملكية حائط المبكى والمسلمون يقولون أن هذا مكان البراق الذي جاء عليه النبي محمد عليه السلام من الحجاز إلى القدس.

وباسم الدين اليهودي بدأ اليهود بالهجرة اليهودية، ومهدت لهم حكومة الانتداب الطريق وسهلت لهم شراء الاراضي عن طريق افقار الملاكين العرب، وفرض الضرائب الباهظة عليهم.

وتم لليهود شراء بعض الاراضي في القدس فبنوا فيها العمارات والكنائس والمدارس، وتم لهم أيضا أن يصبحوا أكثرية في القدس.

ففي الاحصاء الاخير بتاريخ ٨ تشرين الثاني عام ١٩٤٧م بلغ عدد سكان القدس مائة واربعة وستين الفا وخمسمائة موزعين كما يلي:

في البلدة القديمة داخل السور ٣٣٦٠٠ عربي و ٢٤٠٠ يهودي.

في الجزء العربي من البلدة الجديدة ٣٠ الف عربي وتسعة آلاف يهودي.

في الجزء اليهودي من البلدة الجديدة ١٥٠٠ عربي و ٨٨ ألف يهودي.

هكذا، ففي خلال انتداب ثلاثين سنة أمضاها الانجليز في فلسطين ازداد عدد اليود من خمسين الفا عام ١٩١٨ إلى ستمائة وثمانين الفا في عام ١٩٤٧م وكان للقدس نصيب كبير من المهاجرين اليهود.

وأسس اليهود بعض المستعمرات حول القدس والهدف من ذلك جهنمي هو أن تحصر القدس ويسيطر عليها اليهود، كما حصرت يافا بانشاء المستعمرات حولها.

القدس مع الصليبيين حتى حررها صلاح الدين

ذاقت القدس الامرين في عهد السلجوقيين، وهم خليط من الترك والهمج المغول .. ففي عام ١٠٧٢ للميلاد أخذ (ألب ارسلان) الملك من الفاطميين، ولما مات هذا تولى الملك ولده (محمد ملك شاه) عام ١٠٧٧ للميلاد، وثار المقدسيون على الحاكم لظلمه فأرسل الملك المذكور جيشا فتح المدينة عنوة وقتل أكثر رجالها بدون استثناء وسبي النساء واستعبد الاحرار.

واختبأ عدد كبير من سكان القدس في الحرم الشريف، ولكن السلجوقيين قتلوهم بالحرم دون أن يراعوا حرمة لبيت الله.

وفي هذه الاثناء كان الصراع قائما بين الفاطميين والسلجوقيين فكان السلجوقيون يزعمون أنهم يناصرون العباسيين، والفاطميون يدعون للخلافة العلوية .. بينما كان الفرنج يستغلون هذه المنازعات .. فزحفوا على فلسطين واحتلوا القدس، وكان ذلك عام ١٠٩٩م.

* * *

ليس الدين هو السبب في الحروب الصليبية فالتعاليم المسيحية والاسلامية أسمى وأجل من أن ترتكب باسمها الفظائع وقتل الابرياء وتدمير المساكن واستبدال كنيسة بمسجد ومسجد بكنيسة.

وسكان القدس الذين كانوا في عهد الحروب الصليبية من نصارى ومسلمين كانوا على وفاق واتفاق .. ولكن الاستعمار والجشع .. هو الذي دفع الغرب إلى غزو الشرق باسم الدين.

ان ثلاثمائة ألف محارب من اوروبا يركبون البحار ويصلون إلى سواحل فلسطين، وهم خليط من فرنسيين وألمان ونمسويين ومجريين وبولونيين وغير ذلك، لم يأتوا إلى هنا امتثالا لتعاليم السيد المسيح والانجيل المقدس الذي تقف تعاليمه على السلام والمحبة والمساواة.

بدأ حصار أول حملة صليبية على القدس بتاريخ ٧ حزيران عام ١٠٩٩ للميلاد ودام الحصار أربعين يوما، دخلها الصليبيون كما يقول المؤرخون عصر الجمعة ١٥ تموز ١٠٩٩ وما كادوا يدخلونها حتى مثلوا أبشع جريمة وحشية، ان حكموا بالموت على كل مسلم داخل المدينة.

وقد اتفق المؤرخون من الغرب والشرق على استفظاع عمل الفرنج بالقدس... وقدروا من ذبح من أهلها بسبعين ألفا منهم حوالي خمسين ألفا ذبحوا بالحرم الشريف.

وهذه فقرة من رسالة قائد الصليبيين إلى بابا روما تقول: (ان خيولهم في أبواب سليمان - الحرم الشريف - كانت تغوص في بحر من دماء المسلمين حتى ركبها).

واستولى الصليبيون على أملاك المسلمين والنصارى الشرقيين .. وأسسوا مملكة لاتينية.

أما الحرم الشريف فقد قسموه إلى أقسام. فجعلوا قسما منه كنيسة وآخر مستودعا للذخائر وآخر مسكنا لفرسان الهيكل ، والسراديب التي تحت الحرم اسطبلات للخيول.

وبقيت القدس في أيدي الصليبيين الذين أسسوا مملكة امتدت من بيروت إلى العقبة، حيث كان لهم اسطول، إلى أوائل عام ١١٨٧ ميلادية، حيث جاء السلطان صلاح الدين الايوبي من حطين زاحفا فاحتل القدس.

غير أن احتلال القدس من قبل الصليبيين حوالي مائة الا قليل لم يؤثر على لغة السكان، فظلت اللغة العربية توارثها الابناء عن الاباء.

وخلال مدة الصليبيين لم تنقطع المناوشات والحروب بين المسلمين والصليبيين.

* * *

بعد أن تم للسلطان صلاح الدين النصر في معركة حطين، ذلك النصر الذي حطم معنويات الفرنج تحطيما سرى إلى كل بلد يقيم فيه هؤلاء .. فكر في أن يفتح القدس... فجهز جيشا كبيرا وزحف من حطين مخترقا مرج ابن عامر حتى إذا وصل إلى القدس حاصرها من الجهة الغربية، ولكنه عدل عن ذلك لأن القدس تقع في مرتفع وجيشه عسكر في منخفض لا يصلح للهجوم.

وأمر بنقل الجيش إلى الناحية الشمالية التي تقوم عليها اليوم احياء: المسكوبية وباب العمود وباب الساهرة.

ولم يبدأ بالهجوم فورا بل قضى حوالي عشرين يوما من تركيب آلات الحصار.

كيف سلم الصليبيون القدس إلى صلاح الدين؟

بعد أن أتم السلطان صلاح الدين تنظيم حصار المدينة المقدسة وركب آلات الحصار .. وهيأ وسائل القتال .. وتأكد من قوة الجيش .. أرسل انذارا إلى سكان القدس والعسكريين خاصة بالاستسلام دون تأخير.

وظل حتى انتهت مدة الانذار .. واذا به يفاجئه الفرنج باعلان الحرب .. وكانت القوة المدافعة داخل المدينة قوية في عددها إذ بلغ جنودها ستين ألف مقاتل من خيرة الرجال.

وقد استعدوا للحرب .. والدفاع أخف خسارة من الهجوم عادة في الحروب.

عند ذلك أمر السلطان صلاح الدين رامي المنجنيق .. بأن يقذف المدينة بدون هوادة .. وأحكم الرامي التصويب نحو رماة النبال فقتل منهم كثيرا، ونشبت المعركة وأبلى الفريقان فيها بلاء حسنا ذهب ضحيته عدد كبير من المدافعين والمهاجمين على السواء ..

وتمكن جند صلاح الدين من خرق جانب من السور من جهة الشرق، ودخل عدد من الفدائيين المسلمين إلى المدينة فدب الذعر بين السكان جميعا، وطلبوا من قائد الصليبيين ان يعلن الاستسلام حرصا على الارواح والممتلكات ..

ورأى هذا القائد .. ان زمام المعركة فلت من يده فالسكان في ذعر.. والفدائيون يدخلون المدينة زرافات ووحدانا، والمهاجمون زاد حماسهم والمنجنيق يفعل فعله في المدينة فقرر التسليم.

وأرسل رسولا اسمه (باليان) يعرض على السلطان صلاح الدين الاستسلام، وقد تردد صلاح الدين في قبوله أول الامر .. ولكن الرسول أبلغ رسالة أخرى.

كان فحوى الرسالة الثانية أنه في حالة رفض السلطان الاستسلام الذي يعرضه القائد الصليبي، فانه سيقتل الاسرى المسلمين وعددهم خمسة آلاف، ويسهدم المسجد الاقصى ومسجد الصخرة وأنه سيقتل نساء الفرنج، ويظل يقاتل حتى النهاية..

وكان مصدر الخوف عند الصليبيين هو خشيتهم من أن يعاملهم السلطان صلاح الدين كما عاملوا هم سكان القدس المسلمين، لذلك تشددوا في شروط التسليم وأن يوقعها السلطان صلاح الدين بتوقيعه.

وصلاح الدين الأيوبي يشهد الفرنج ومؤرخو الفرنج أنه من انبل رجال التاريخ وأعلاهم همة، فقد منح الصليبيين الحرية بمغادرة المدينة على ان يدفعوا الجزية وقدرها عشرة دنانير على الرجل القادر وخمسة دنانير عن المرأة القادرة ودينار على الطفل الذي يقدر والده على الدفع، وأعفى الفقراء وافتدى هو بنفسه عشرة الاف إنسان منهم. واخوه الملك العادل سيف الدين افتدى سبعةالاف.

وتم لصلاح الدين فتح القدس في السابع والعشرين من رجب عام ٥٨٣ هـ وفق الثاني من تشرين الاول عام ١١٨٧م.

ودخل المدينة المقدسة وامر جنوده بان لا يتعرض أحد منهم إلى أي من الفرنج، والا يعتدي أحد على معابد النصارى، وأن تحترم المدينة من كل عمل يشين.

ولم يذكر المؤرخون شيئا من أعمال السلب والقتل التي تعقب عادة الفتح، لان مثلها ما وقعت في القدس أيام صلاح الدين.

ومن آثار صلاح لدى دخوله القدس أنه أمر باغلاق كنيسة القيامة ووضع حراسا عليها خوفا من تسلل أحد اليها بقصد السرقة أو الاذى حتى اذا تأكد من أن الامن أصبح مستتبا أمر بفتحها للنصارى للتعبد بحرية كما يشاؤون.

وشرع صلاح الدين في تنظيم المدينة وترتيب العسس (الشرطة)، وأزال آثار الصليبيين عن الاقصى والصخرة، وبدأ في اصلاحهما واستدعى عددا من القبائل العربية فأسكنها في القدس بعد أن أوصاها بحسن السيرة وفرض لها إعاشة دائمة.

وقمح الخليل الذي يتورثة المقدسيون أبا عن جد مصدره صلاح الدين الايوبي إذ فرض مؤونة من القمح والشعير على المرابطين بخيلهم لحراسة الاقصى والصخرة.

وصلاح الدين الايوبي .. هو الذي رتب الاعياد والمواسم في القدس كموسم النبي يونس.

وتلك فكرة من صلاح الدين مصدرها الخوف من الزائرين الاوروبيين أن يأتوا لزيارة القدس جنودا باسم الدين والزيارة فيحتلوا المدينة .. فكان عيد الموسم لاظهار القوة فقط في عيون الفرنج.

ومن آثار السلطان صلاح الدين في القدس (البيرمارستان) أي المستشفى، فكان أول مستشفى في القدس لعلاج الجند والاهلين بدون عوض ولا أجر.

وكان يقوم هذا المستشفى في الدباغة على البقعة القائم عليها سوق البيزار، وكنيسة الالمان وشطر من سوق افنيوس.

واهتم صلاح الدين ايضا بسور مدينة القدس فعمره وجدد ما تهدم منه. وانشأ عددا من الابراج في الجزء الواقع بين باب العمود وباب الخليل .. وحفر حول السور خندقا يمنع الصليبيين من دخول المدينة .. ويذكر المؤرخون أن صلاح الدين كان يشارك العمال في العمل فيحمل الحجارة على كتفه فيبنى في السور كغيره من البنائين .. وعمل كهذا شجع القواد والامراء ان يحذوا حذوه تشجيعا للعمال.

القدس كانت كالكرة بين الصليبيين والمسلمين

وشهدت القدس في عهد صلاح الدين ما لم تشهده من الامن والنظام والعدل... اذا استثنينا عهد الخليفة عمر بن الخطاب.

وترك صلاح الدين الايوبي آثارا منها ما يزال باقيا ومنها ما اندثر مع مرور الزمن.

فمن آثاره الباقية (قبة يوسف) القائمة على الطرف الجنوبي من فناء الصخرة المشرفة، وجامع الجبل الكائن على جبل الطور إلى الشرق من المدينة المقدسة، ومقبرة الساهرة وكانت على عهده تعرف بمقبرة المجاهدين.

ومن آثار صلاح الدين المدرسة الميمونية - وهو الاصح - فالبعض يسميها بالمأمونية نسبة إلى الخليفة المأمون بن هارون الرشيد، والأصح أن الذي أنشأها وأوقفها خازن السلطان صلاح الدين وهو الامير فارس الدين أبو سعيد ميمون ابن عبد الله القصري عام ٥٩٢ هـ وفق ١١٩٦م. وقد اندثرت مع الزمن وأصبح قسم منها فاخورة والاخر مزبلة إلى أوائل عام ١٣١٠ هجرية وفق ١٨٩٢ ميلادية حيث عمرها الاتراك .. وأسموها (قدس شريف مكتب اعداديس).

وعند احتلال الانجليز حولوها إلى مدرسة للبنات ولا تزال. وتقع هذه المدرسة على بعد مائتي متر من السور الشمالي وعلى مقربة من باب الساهرة.

بعد وفاة السلطان صلاح الدين رحمه الله عام ٥٨٩ هـ وفق عام ١١٩٣ ميلادية ودفن في دمشق وقبره للان يزار أحصى ما لديه من المال فلم يجدوا في خزانته أكثر من خمسة وعشرين دينارا وسبعة عشر درهما، وهذا الرجل الفذ الذي قفز من جندي إلى قائد إلى سلطان فحكم مصر والجزيرة العربية واليمن وبلاد الشام وفلسطين وحارب الفرنج وانتصر عليهم في أكثر حروبه، يموت وليس لديه مال، إن دل ذلك على شيء فانما يدل على إيمان هذا الرجل وإخلاصه وانه أوقف حياته كلها في خدمة هذا الوطن العربي الكبير ..

غير أن هذه الامبراطورية الواسعة قسمت المماليك إلى ممالك اقتسمها أولاد السلطان صلاح الدين، ودب التنافر مع بعضهم مما شجع الفرنج على معاودة احتلال القدس.

ولكن الملك الكامل حفيد السلطان صلاح الدين سلم القدس للفرنج دون حرب، إذ عقد معهم هدنة مدتها عشر سنوات وخمسة أشهر واربعين يوما، على أن تبقى المساجد فقط بيد المسلمين ووقع المعاهدة مع الامبراطور فريدريك.

غير أن هذه الهدنة لم تدم فقد عمد الفرنج يستعدون للحرب. وحصنوا القدس تحصينا تاما، ومات الملك ناصر داود حفيد صلاح الدين الايوبي وحاصر القدس حصارا دام واحدا وعشرين يوما وأخذها منهم عنوة.

لكن حكمه لم يدم... اذ اختلف الملك الصالح نجم الدين ابن عمه فعاد الفرنج واحتلوها.

وأصبحت القدس كالكرة تارة بيد الفرنج وتارة بيد المسلمين وخاصة في عهد المماليك الذين انتهت الحروب الصليبية على عهدهم لصالح المسلمين.

* * *

أول من استولى على القدس من سلاطين آل عثمان هو السلطان سليم عام ١٥١٧م بعد أن انتصر على المماليك في معركة مرج دابق، وفي عصره فتحت مصر أيضا وتنازل له آخر الخلفاء العباسيين المتوكل على الله عن الخلافة وبايعه وسلم مفاتيح الحرمين الشريفين بمكة والمدينة فأصبح الآمر الناهي في مصر والشام وتركيا.

ودخل القدس السلطان سليم فزار قبور الانبياء والاماكن المقدسة والاثار التاريخية، ولم يطل حكمه اذ توفي في استنبول وخلفه ولده السلطان سليمان الاول المعروف بالقانوني.

وبعهد القانوني جدد عمارة سور المدينة المقدسة كما هي الان .. وقد دامت عمارة السور خمسة أعوام ورمم القلعة وأنشأ البرج الكائن على يمين الداخل من باب الخليل وعمر بركة السلطان على طريق المحطة.

وقد عمر قبة الصخرة وأعاد تبليطها، وعمر جدران الحرب الشريف وأبوابه وأمر باغلاق الباب الذهبي من أبواب الحرم، وفتح الباب المعروف اليوم بباب ستنا مريم.

وجدد القاشاني الكائن في قبة السلسلة، وعلى عهده انشئت التكية المعروفة اليوم بتكية خاسكي سلطان في عقبة المفتي، انشأتها زوجته (روكسيلانة) عام ١٥٥٢ ميلادية، والمدرسة الرصاصية بحارة الواد انشأها مناظر عمارة السور الامير بايرام جاويش ..

وانشيء في عهده مسجد الطور في المكان الذي تقوم عليه كنيسة الصعود.

المدينة المقدسة في عهد ابراهيم باشا

بقيت القدس تحت حكم العثمانيين كغيرها من البلاد الشامية، لم يفكر الفرنج بالعودة اليها محاربين بل قضى عليهم المماليك وخاصة الملك ظاهر بيبرس البندقاوي.

كان سلاطين آل عثمان منهم العادل، فتلقى القدس العناية والاحترام، ومنهم الظالم فتلقى الجور والاضطهاد.

إلى أن تولى الخلافة السلطان محمود الثاني عام ١٨٠٨ ميلادية ووقعت فتنة وثورة في القدس عجزت القوة التركية عن اخمادها مما دعا السلطان محمود إلى إرسال عبد الله باشا بجيش معزز بالأسلحة والمدافع وتمكن هذا الباشا من إخماد الثورة بعد أن ضرب القدس بالمدافع والقنابل عام ١٨٢٧م، وفي هذه السنة أعلن محمد علي باشا والي مصر العصيان على الخلافة، وأعلن الحرب على السلطان وأرسل جيشا كبيرا بقيادة ولده ابراهيم باشا زاحفا من مصر إلى بر الشام.

وبدأ ابراهيم باشا الحرب في فلسطين فاستولى على جميع فلسطين بما فيها القدس عام ١٨٣١.

وواصل الزحف واحتل سوريا والاناضول وكاد يصل إلى استنبول لولا تدخل دول اوروبا.

وجرى الصلح بين السلطان ومحمد علي باشا على ان تكون البلاد الواقعة بين أضنة وغزة تابعة لمصر .. وهكذا دخلت القدس في حوزة محمد علي باشا.

لكن المقدسيين بدأوا يثورون على حكم المصريين، فتارة ينتصرون وتارة يندحرون.

وقد اشتركت نابلس في الحرب ضد ابراهيم باشا ووقعت معارك كبيرة بين الفريقين اهمها المعركة التي جرت قرب مخماس وقتل فيها من الثوار ثلاثة الاف قتيل وخمسمائة أسير.

وعادت الثورة من جديد .. مما اضطر محمد علي باشا أن يحضر بنفسه إلى فلسطين بعد أن أرسل له نجدة كبيرة من مصر.

والتقى مع ابراهيم باشا بيافا .. واتفقا على اخماد الثورة وعاد هو لمصر تاركا ولده ابراهيم باشا ليقضي على الثورة ليس في القدس فحسب بل وفي أنحاء أخرى من فلسطين.

وجاء ابراهيم باشا إلى القدس ومعه ثلاثون ألف جندي وعشرة مدافع كبيرة وخمسة لقذف القنابل، وخبت نار الثورة في القدس بعد هذا.

لكنها عادت بصورة أخف، وأخيرا وبعد عشر سنوات على بقاء ابراهيم باشا في القدس غادرها إلى مصر عام ١٨٤١ ميلادية .. وقد ترك وراءه عددا كبيرا من المصريين في فلسطين .. استوطنوها واندمجوا مع السكان ولا يزالون فيها كأبنائها.

* * *

انشيء في عهد ابراهيم باشا جانب القشلان الكبير الكائن عند باب الخليل، وجددت عمارة السراي القديمة الكائنة على طريق الجسمانية.

وانشئت كذلك (طاحون الهواء) الكائنة غربي المدينة وهي أول طاحونة إلى الشمال من ضريح النبي داود على جبل صهيون، وعمرت كذلك في عهده قلعة وادي الجوز .. واخرى بين هذا الوادي وجبل الطور.

ومن حسنات إبراهيم باشا في القدس مكافحته للرشوة .. والمساواة بين المسلمين والنصارى، وتشجيع المزارعة وتوزيع البذار على الفلاحين، وتشجيع المزارعين على غرس الاشجار ومساعدتهم.

وأهم حسنات ابراهيم باشا هو منعه اليهود من شراء الاراضي واستعمارها.

فقد جاء في مذكرات السير موسى حاييم مونتفيوري أحد كبار اليهود الانجليز عام ١٨٣٦ أنه عبثا حاول اقناع ابراهيم باشا وابيه محمد على ان يؤجراه أرضا كانت مساحتها خمسين فدانا ومائتي قرية فلسطينية لمدة خمسين عاما .. ولكن ابراهيم باشا رفض رغم الاموال الطائلة التي بذلها اليهود ووعدوه بدفعها ..

كما منعهم من إنشاء المصانع والمعامل لعلمه بمكرهم .. وسمح لهم بالبيع والشراء بالبضائع والاشياء المنقولة فقط.

وعصر ابراهيم باشا اجمالا في فلسطين كان يتسم بالقسوة، وأكره الاشياء اليه هي الرشوة واعتداء الجند على الاهالي في السلم ..

ويذكر الذين عاصروه في عكا عندما احتلها أن أحد جنوده أخذ كوبا من اللبن من فلاحة لم يدفع ثمنه .. وشكت هذه المرأة الجندي لشاويش، وبدوره أوصلها للباشا الذي قال لها:

هل تعرفين الجندي؟

واجابت نعم اذا رأيته، فاستعرض الجنود امامها وأشارت إلى أحدهم فقال لها ابراهيم باشا:

ان اللبن في بطن الجندي وسأضربه بالسيف فان ظهر اللبن أخذ جزاءه، والا قتلتك وأصرت الفلاحة على أن الجندي هو بعينه ورضيت بالشرط .. فضربه الباشا بالسيف وظهر اللبن ودفع ثمنه للمرأة وصرفها.

القدس في عهد الاتراك حتى احتلها الانجليز

إن عشر السنوات التي قضاها ابراهيم باشا في هذه البلاد كانت طافحة بالحروب والثورات، أي من ١٨٣١-١٨٤١ للميلاد، ولهذا تنفس المقدسيون الصعداء حين عادت إلى حكم الاتراك حيث الحقت بايالة صيدا.

وظل سكان القدس يعيشون داخل السور إلى أوائل عام ١٨٥٨م حيث خرج قسم منهم إلى خارج السور يبنون العمارات.

ولم تعرف القدس الطربوش ولا الاتراك الا في عهد السلطان عبد العزيز عام ١٨٦١ للميلاد.

وهذا السلطان أنفق على عمارة الحرم ثلاثين الف ليرة تركية، وبنى المسجد العمري على مقربة من كنيسة القيامة على المكان الذي صلى فيه عمر ابن الخطاب عندما كان يزور القيامة يوم أن فتح القدس.

ولنذكر هنا لمحة عن القدس في عهد السلطان عبد الحميد .. الداهية الدكتاتور، ففي عهده اي عام ١٨٨١ ميلادية حاول اليهود دفع أموال لخزينة تركيا مقابل السماح لهم بالهجرة لفلسطين واستعمار الأراضي، ورفض السلطان عبد الحميد طلبهم وسن قانونا يحرم هجرة اليهود إلى فلسطين وشراءهم الأراضي، ثم عدل القانون فسمح لهم بزيارة فلسطين للعبادة على الا يقيم فيها اليهودي أكثر من ثلاثة أشهر.

وفي أيام عبد الحميد بنيت المدرسة الرشيدية الكائنة تجاه السور قرب باب الساهرة عام ١٩٠٦م وجددت عمارة الحرم الشريف، وأمر برصف شوارع القدس مجددا وهو الذي نراه اليوم.

وفي عهده حصل الانقلاب على الظلم، فسقط عبد الحميد ونصب مكانه أخوه، السلطان محمد رشاد الذي حدثت الحرب العالمية الاولى في عهده.

والقدس في العهد التركي كانت مركزا لقطاع واسع يسمى سنجق القدس، مؤلفا من خمسة أقضية: (١) قضاء القدس؛ (٢) قضاء يافا؛ (٣) قضاء الخليل؛ (٤) قضاء غزة؛ (٥) قضاء بئر السبع.

وكان الموظفون كلهم من الاهالي عدا الموظف الأكبر وبعض رؤساء الدوائر الكبيرة، والنفوذ كان في القدس بيد الزعماء والافندية.

ومن الطرائف في القدس في عام ١٨٦٢م أن كان رطل الزيت بثمان وأربعين بارة ورطل الطحين بست بارات، وبيع رأس الغنم بقرش ونصف وفي عام ١٨٦١م بيعت دار في حارة الواد بعشرين قرشا، كما بيعت دار في حارة النصارى بهذا الثمن، وبيعت دار من طابقين بباب العمود بثلاثين قرشا، وفي باب حطة بخمسة وسبعين قرشا. وكان مهر المرأة بين ثلاثة قروش وخمسة وستين قرشا.

ومن الطرائف أن كثرة الزيت في القدس جعلت الاهالي يتلفون الزيت القديم.

والأسباب ترجع إلى قلة العملة، وكثرة الحاجيات التي كانت تجري المعاملة فيها بالمقايضة، خذ زيتا وهات قمحا مثلا.

وأعلنت الحرب الكونية الاولى وانتهت بهزيمة الترك في معركة الترعة أي قنال السويس، وتقهقروا أخيرا إلى الوراء وتقدم الجيش الانجليزي نحو القدس.

وقاد الجيش الانجليزي اللورد اللنبي الذي استولى أولا على بئر السبع بتاريخ ١٣ تشرين الاول ١٩١٧م ثم على غزة في ٧ تشرين الثاني سنة ١٩١٧م والرملة ويافا في ١٦ تشرين الثاني سنة ١٩١٧م.

وتقدم الجيش الانجليزي فسارت كتائب منه باتجاه سيريس وقرية العنب، وأخرى على طريق اللطرون رام الله باتجاه لقيا وبيت عور، وكتائب أخرى على طريق بئر السبع-الخليل لمجابهة الطواريء.

فسقطت سيريس في ٢٠ تشرين الثاني ١٩١٨م وقرية العنب، ووصلت إحدى الكتائب فاحتلت النبي صمويل تلك القرية المسيطرة على قطاع القدس بسبب ارتفاعها.

وهنا وقف الانجليز ولم يستطيعوا التقدم شبرا واحدا فقد أظهر الاتراك عنادا وصمودا أعجز الانجليز عن التغلب عليهم.

وكل محاولة للهجوم كانت تقابل بدفاع شديد، مما اضطر اللورد اللنبي في ٢٤ تشرين الثاني إلى إصدار أمر بوقف الهجوم.

وطلب اللنبي نجدة بعد هذا الفشل، ووصلت نجدات من جنوبي فلسطين، وحاول الهجوم بتاريخ ٢٧ تشرين الثاني ولكنه فشل.

غيّر الانجليز الخطة التي رسموها للقتال، قووا كتائبهم المرابطة بالنبي صمويل، كما قووا قواتهم المرابطة في طريق قرية العنب-القدس، وفي وادي الصرار وطريق بئر السبع-الخليل.

وخلال عشرة الايام الاولى التي سبقت احتلال القدس .. اقترف الاتراك خطأ فاحشا فراحوا يهاجمون الانجليز بضراوة والانجليز يدافعون، حتى انهك هذا الهجوم الجزء الاكبر من الجيش التركي.

واغتنم الانجليز الفرصة فأتوا بنجدات ومدافع جديدة وتمكنوا من احتلال قرية بيت اكسا والتلال التي حولها، واحتلوا دير ياسين ثم احتلوا عين كارم وأصبحت مدافعهم تقصف القدس من جهاتها الثلاث: الشمال والغرب والجنوب.

رابطة الجامعيين
مكتبة مركز الابحاث
الرقم ٠٠٠٠٨٨٢
التاريخ ٠٠٠٠٠٠٨٠٠٠

رابطة الجامعين
المكتبه العامة الخليل
رقم التصنيف 4237
رقم الكتاب

وثيقة انسحاب الاتراك وبيان النبي للسكان

عندما اشتد هجوم الانجليز على القدس وقصفوها بالمدفعية كما ذكرنا شمالا وغربا وجنوبا أيقن الاتراك أنهم خسروا المعركة، وان القدس لا محالة واقعة بيد الانجليز.

عندئذ استدعى المتصرف التركي عزت بك عددا من أعيان المدينة ووجهائها واجتمع بهم، وأخبرهم بحقيقة الأمر وان الاتراك سينسحبون من المدينة المقدسة ولا يعرضونها للخراب والويلات.

وكتب المتصرف عزت بك إلى القائد الانجليزي رسالة هذا نصها:

(إلى القيادة الانجليزية:

منذ يومين والقنابل تتساقط على القدس المقدسة لدى كل ملة، فالحكومة العثمانية -محافظة منها على الاماكن المقدسة من الخراب- سحبت عساكرها من المدينة، وأقامت موظفين ليحافظوا على الأماكن الدينية مثل كنيسة القيامة والمسجد الاقصى، وعلى أمل أن تكون المعاملة قبلكم ايضا على هذا الوجه .. فاني أبعث اليكم بهذه الورقة مع حسين بك الحسيني رئيس بلدية القدس بالوكالة سيدي.

التاريخ ١٣٣٣/١٢/٨ الموافق ١٩١٧/١٢/٨م.)

وفي صباح اليوم الثاني انسحب الجيش التركي من المدينة المقدسة فريق منهم انسحب عن طريق أريحا، وآخرون ولوا وجوههم شطر نابلس .. وكانت السماء ماطرة تخيم على المدينة سحب قاتمة من الرهبة والسكون.

ودخل الانجليز القدس عن طريق الشيخ بدر، الحي الكائن إلى الغرب من القدس.

* * *

بعد يومين دخل اللورد اللنبي المدينة من بابها المعروف بباب الخليل، واذاع من فوره على السكان .. ومن على درج القلعة البيان التالي:

(ان انهزام الاتراك أمام الجيوش التي اقودها أدى إلى احتلال مدينتكم، وفي الوقت الذي اذيع عليكم فيه هذا النبأ اعلن الاحكام العرفية، وستبقى هذه نافذة المفعول ما دام ثمة ضرورة حربية، ولئلا ينالكم الجوع كما نالكم على يد الاتراك، أريد أن أخبركم أنني أرغب أن أرى كل واحد منكم قائما بعمله وفقا للقانون، دون أن يخشى أي تدخل من أي شخص كان. إن مدينتكم محترمة في نظر اتباع الديانات الثلاث الكبرى وترابها مقدس في نظر الحجاج والمتعبدين الكثيرين من أبناء الطوائف الثلاث المذكورة منذ قرون وأجيال، وأود أن احيطكم علما بان جميع المعابد والأماكن المقدسة ستصان وفقا للمعلنات المرعية وبالنسبة إلى تقاليد الطوائف التي تملكها).

وأدار الانجليز القدس بادىء ذي بدء إدارة عسكرية وأقاموا عليها حاكما عسكريا هو الجنرال بيل بورتون، واستقال هذا بعد اسبوعين لاسباب صحية، فخلفه في الادارة السر الكسندر بيرد .. ثم جاء السر رونالد ستورس فعين حاكما اداريا.

وبالاضافة للحاكم الاداري كان هناك موظف انجليزي كبير لادارة فلسطين جميعها يلقب بالمدير العام لبلاد العدو المحتلة الجنوبية.

ومن جملة هؤلاء البريجادر كلاينون والميجور جنرال الروماني والميجور جنرال السر وطسن والميجور جنرال السربوك.

* * *

كان العرب يتوقعون من الانجليز أن يعهدوا اليهم بادارة بلادهم، فراوها حتى بعد اعلان الحكم المدني تدار بأيد انجليزية، وراح الانجليز يرهقون السكان بالضرائب، ويسنون القوانين ما يشاؤون لا ما يشاء الشعب نفسه وما تقضي به مصلحته.

وعرف الناس وعد بلفور المشئوم، والغريب في الأمر أن هذا الوعد أعطاه بلفور للورد روتشيلد بتاريخ ٢ تشرين الثاني ١٩١٧م، ولم يذع الا بعد ان احتل الانجليز القدس بتاريخ ٩ كانون الاول ١٩١٧م، ووضعت الحرب أوزارها ولم يعد الانجليز عندها بحاجة إلى أرض العرب وسكان البلاد المقدسة.

وما كاد يعلن وعد بلفور ويذاع في القدس وسائر أنحاء فلسطين حتى راح العرب يعلنون سخطهم عليه واستنكارهم له، وتزعزعت ثقة العرب ببريطانيا ووعودها باستقلال البلاد العربية.

* * *

وتعاون المسلمون والمسيحيون في القدس لمقاومة وعد بلفور .. وشكلت في فلسطين كثير من الجمعيات التي تحمل اسم الجمعية الاسلامية ـ المسيحية، وعقدت هذه الجمعيات مؤتمرا في يافا بتاريخ ١٢ شباط عام ١٩١٩م قررت فيه الانضمام إلى سوريا التي كانت حينئذ مملكة على رأسها المرحوم الملك فيصل بن الحسين.

وجاء لجنة اميركية عرفت بلجنة (كرين) إلى البلاد المقدسة بتاريخ ١٠ حزيران ١٩١٩م، وكانت مهمة هذه اللجنة استفتاء السكان في نوع الحكم الذي يريدونه لبلادهم.

وجاء في تقرير اللجنة (ان المسلمين والمسحيين اتفقوا على مقاومة الصهيونية ووعد بلفور ورفضوا الانتداب البريطاني، وطالبوا بالغاء وعد بلفور كما طالبوا بالاستقلال التام ضمن وحدة البلاد السورية. وإذا كان لا بد من الانتداب فلتكن الدولة المنتدبة أميركا وليست بريطانيا التي منحت اليهود وعدا باقامة وطن قومي يهودي في فلسطين.

وأكد العرب في القدس وجميع فلسطين للجنة (كرين) الاميركية أن إقامة وطن قوي لليهود في فلسطين ستؤدي إلى نتائج وخيمة العواقب.

وكانت هذه اللجنة مثال النزاهة، فقد جاء في تقريرها أنها -اي اللجنة- اقتنعت من أحاديثها مع اليهود .. أن الصهيونيين يتوقعون عن طريق الهجرة اليهودية .. أن يجلوا السكان غير اليهود عن فلسطين.

وأضافت اللجنة في تقريرها قائلة: إن الشعور ضد الصهيونية بلغ أشده، وان البرنامج الصهيوني لا يمكن تنفيذه الا بالقوة .. وان مطالب الصهيونيين انهم احتلوا فلسطين قبل ألفي سنة وهذه دعوى لا تستحق الاكتراث.

وأوصت اللجنة في ختام تقريرها بتحديد هجرة اليهود إلى فلسطين، والعدول بتاتا عن الخطة التي ترمي إلى جعل فلسطين دولة يهودية...

ولم تشترك بريطانيا وفرنسا بهذه اللجنة .. رغم الاتفاق مع أمريكا على استقلال البلاد المحررة من حكم الاتراك، عملا بالقرار الذي أصدره مؤتمر الصلح في ٢٠ كانون الثاني ١٩١٩م وذلك تنفيذا للمادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم.

والسبب يعود إلى أن عملية الاستفتاء هذه تتعارض ونصوص معاهدة (سايكس بيكو)، تلك المعاهدة السرية التي اقتسمت بريطانيا وفرنسا بلاد العرب وظهرت هذه المعاهدة السرية عندما اجبرت جيوش فرنسا الملك فيصل على مغادرة دمشق واحتلالها من قبل الفرنسيين.

وضربت بريطانيا وفرنسا بتوصيات لجنة (كرين) عرض الحائط، وأظهرتا لها العداء السافر وتحدتاها بأن جعلتا العراق وشرق الاردن وفلسطين للانجليز، وسوريا ولبنان للفرنسيين.

ازداد سخط العرب على السياسة الانجليزية في فلسطين وتحول السخط إلى مظاهرات واشتباكات واضطرابات، كان أشدها في ٤ نيسان ١٩٢٠م فقتل في جرائها تسعة من اليهود، وأربعة من العرب وجرح مائتان وخمسون يهوديا،

وواحد وعشرون عربيا، وأعلنت الأحكام العرفية واعتقلت السلطات الانجليزية عددا من زعماء القدس وشبابها وزجتهم في أعماق السجون، وتألفت محكمة عسكرية كانت الأولى في فلسطين.

وفي أول تموز ١٩٢٠ استبدل الحكم العسكري بادارة مدنية، وأوفدت حكومة صاحب الجلالة البريطانية أول مندوب سام إلى فلسطين.

واختارته لان يكون صهيونيا انجليزيا هو السر هربرت صمويل. وهبط من الطائرة تحرسه الدبابات، وأظهر حين توليه السلطة أنه حيادي يبغي الخير للعرب واليهود، غير أنه بدأ يلعب في الخفاء لتنفيذ سياسة مرسومة لصالح اليهود. فازداد التوتر في البلاد وانتقلت الاضطرابات من القدس فعمت يافا، فاقفلت المدينة وسادت الفوضى وامتد لهيب الاضطرابات إلى المستعمرات اليهودية، فقتل من جراء ذلك خمسة وتسعون، منهم ثمانية واربعون عربيا، وسبعة وأربعون يهوديا، وجرح مائتان وتسعة عشر شخصا، منهم ١٣ عربيا، والاخرون من اليهود.

وتألفت لجنة برئاسة توماس هيكرافت قاضي القضاة للتحقيق فقال في تقريره:

(ان هذه الاضطرابات ناشئة عن الشعور السائد في البلاد ضد اليهود، وهذا ناشيء عن خطة الحكومة فيما يتعلق بالوطن القومي لليهود).

لكن السلطة البريطانية تجاهلت هذا وبدأت تسلم الاسلحة للمستعمرات اليهودية، وتحظر على العرب حمل السلاح، وجعلت عقوبة الاعدام قصاصا لمن يحمل السلاح من العرب، وتدفقت الهجرة اليهودية إلى فلسطين بعهد هربرت صمويل الذي استطاع في خمس سنوات أن يجعل عدد اليهود الداخلين إلى فلسطين أكثر من ستين ألفا اختار القدس ليقيم فيها معظمهم.

ومن أول تموز عام ١٩٢٠م إلى أول آب ١٩٢٥م وهي مدة هربرت صمويل، كان هناك اثنان من اليهود يديران الدفة لمصلحة اليهود في فلسطين، أولهما هربرت صمويل نفسه، والاخر المستشار القضائي لحكومة فلسطين الادون نورمابنيونش، كان الاخير يسن القوانين والتشاريع وكان الاول يوقع ويأمر بالتنفيذ.

القدس تقود الحركة الوطنية في فلسطين

نستطيع القول بالنسبة لمركز القدس الديني من ناحية، والسياسي من ناحية أخرى... بأنها كانت تتصدر الحركات الوطنية العربية في فلسطين.

فالعرب فيها، المسلم والمسيحي على حد سواء، متفقون في أهدافهم ومطالبهم ومقاومتهم الوطن القومي اليهودي في فلسطين.

والطائفتان حريصتان على الأخوة العربية التي تربطهم وان الخطر اليهودي لا يهدد طائفة دون أخرى.

ومركز القدس السياسي، وأنها أهم مدينة في فلسطين وهي العاصمة، وفيها المراكز الحكومية الكبرى، جعلها تقود الحركة الوطنية طيلة ايام النضال العربي الفلسطيني...

* * *

بدأ الاشتباك بين العرب واليهود في القدس، ومنه امتد إلى فلسطين كلها وخاصة المدن الكبرى فيها.

وكان شهر آب عام ١٩٢٩م كله شهر اضطرابات. إن خمدت يوما عادت للاشتعال في اليوم التالي. أساس الاضطرابات هم اليهود فقد تجاوزوا الحدود أثناء زيارتهم للبراق - حائط المبكى - ذلك المكان الاسلامي منذ الف وثلاثمائة عام ونيف.

فاليهود يدعون أن حائط البراق هو أثر الهيكل الذي هدمه تيطس ودمره تدميرا كاملا، ويدعون أن لهم الحق في جلب الكراسي والستائر والأبواق في عيد الغفران ويجلسون يبكون ويصلون.

وبالطبع فان المسلمين يشد أزرهم إخوانهم المسيحيون، لا يرضون بهذا التحدي والاعتداء.

ففي الخامس عشر من آب عام ١٩٢٩م وهو يوم عيد الغفران عند اليهود، وفد إلى القدس عدة مئات من شباب اليهود لزيارة المبكى ومروا وسط الاحياء العربية ينشدون نشيد (الهاتكفا)، مستفزين العرب... ومستهينين بسلطات الانتداب.

أمام هذا العمل لم يستطع العرب السكوت فوقع التصادم الدامي في القدس وامتد إلى الخليل وصفد ويافا.

وقامت هذه الاضطرابات، وذهب ضحية لها مائة وثلاثة وثلاثون قتيلا يهوديا وجرح منهم ٣٣٩.

وقتل من العرب مائة وستة عشر شخصا، وجرح منهم ٢٣٢. وكانت اضطرابات ١٩٢٩م مع ما فيها من خسائر مادية فادحة وضحايا في الأرواح مفيدة جدا إذ نزح عن فلسطين عدد كبير من اليهود، وهجر سكان المستعمرات مستعمراتهم وهبط عدد المهاجرين إلى الحضيض.

وخلاصة القول أن القدس كانت دائما في الطليعة في النضال. وهي كمدينة يشترك اليهود والعرب في الاقامة فيها معرضة دائما لهزات سياسية وثورات دامية يذهب ضحاياها الكثير من الفريقين.

وسكان القدس العرب... لم يألوا جهدا في التضحية بالمال والنفس في سبيل الكفاح الوطني. وما ان جاء عام ١٩٣٥م حتى ضج الرأي العام العربي ناقما على امور ثلاثة هي:

١. تحيز سلطات الانتداب لليهود.
٢. كثرة المهاجرين اليهود وتهريب الاسلحة.
٣. التناحر بين الاحزاب العربية والتطاحن فيما بينها.

وجاء دور الصحف فحملت حملة شعواء على زعماء فلسطين وطالبتهم بالاتحاد استجابة لرغبة الرأي العام الذي مل هذا التنابذ الفارغ.

ونتيجة لضغط الشعب وحملات الصحف اضطرت الأحزاب جميعها إلى الاجتماع، ولبت دعوة وجهت اليها من لجنة مؤتمر الشباب، وعقدت هذه الاحزاب اجتماعا خرجت منه بمقررات ثلاثة قدمت إلى المندوب السامي وتتلخص فيما يلي:

١. وقف الهجرة اليهودية ومنعها منعا باتا.
٢. منع بيع الأراضي لليهود.
٣. تشكيل حكومة وطنية.

وتجاهلت الحكومة هذه الطلبات، وضربت بها عرض الحائط وظلت موالية لليهود الأمر الذي جعل البلاد تصبح في غليان وهياج.

* * *

اتحدت الاحزاب العربية جميعها في لجنة سميت اللجنة العربية العليا... وهذه جعلت مقرها القدس مركز الثقل ودعت الشعب إلى الاضراب اضرابا غير محدود.

وأنذرت الهيئة العربية العليا الحكومة المنتدبة بأنها إذا لم تعدل عن خطتها وتستجب لمطالب العرب الحقة، فانها لن تستطيع التخلي عن هذه المطالب وسيستمر إضراب البلاد.

وأصمت الحكومة اذنيها، فاصدرت الهيئة العربية بيافا في ٧ أيار سنة ١٩٣٦م بيانا طالبت الشعب فيه بالاستمرار بالاضراب، وأضافت اليه قرارا اخر هو إعلان العصيان المدني، ومعناه الامتناع عن دفع الضرائب.

وأضربت الصحف ثلاثة أيام تضامنا مع الشعب، ودام هذا الاضراب مائة وستة وسبعين يوما، لم تشهد له القدس ولا فلسطين ولا اي بلد عربي مثيلا.

جهاد القدس في ثورات فلسطين المتعاقبة

كان الاضراب الوطني الكبير مثال التنظيم في مدينة القدس فعلى الرغم من مجاورة اليهود للعرب، فقد كانت المقاطعة سلاحا استعمله العرب، فشلت حركة اليهود التجارية في المدينة المقدسة.

وألف شباب القدس (الحرس الوطني) للاشراف على الاضراب .. وتنظيم المقاطعة .. وتأمين حاجات السكان.

وتعاون العرب فيما بينهم .. فتحملوا الاضراب وتعطيل الاعمال .. وفرض الاغنياء على أنفسهم التبرعات لاعانة العمال العاطلين .. والفقراء والبيوت المستورة.

ورافق الاضراب عام ١٩٣٦م الثورة المعروفة المنظمة التي اشترك فيها متطوعون من البلاد العربية أمثال فضيلة الشيخ محمد الأشمر الثائر السوري القديم، وفوزي القاوقجي وحمد صعب .. ونشطت حركة الأسلحة ونظمت الثورة تنظيما صحيحا أذهلت سلطات الانتداب.

وخرج شباب القدس إلى الجبال، وانضموا إلى الثوار، نذكر منهم البطل الشهيد عبد القادر الحسيني رحمه الله. وقد اشترك مع القائمقام العسكري سعيد بك العاص الثائر السوري في معركة الخضر قرب بيت لحم.

وقد استشهد المرحوم سعيد العاص، وجرح عبد القادر الحسيني واخذ أسيرا ثم تمكن من الفرار ليستأنف النضال.

وأبناء القدس كانوا يقاتلون في جبهتين: الجبهة الاولى قلب المدينة المقدسة تضاف إليه الاحياء العربية في القدس الجديدة .. ورد عدوان اليهود وغدرهم ومكرهم. والجبهة الثانية مقارعة جنود الانكليز ومعاونة إخوانهم في الجبال.

* * *

عاد الهدوء للقدس عقب نداء ملوك العرب وامرائهم لعرب فلسطين بالكف عن الاضطرابات، وإنهاء الاضراب بعد أن تكبدت المدينة خسائر بالأموال والارواح رضيت بها عن طيب نفس في سبيل الوطن.

واستؤنفت الثورة عقب قرار لجنة تقسيم (بيل)، وبدلا من أن تحصر في منطقة فقد امتدت إلى جميع انحاء فلسطين، وخرج شباب القدس للثورة، وعاد الشهيد المرحوم عبد القادر الحسيني ليقود مجاهدي القدس في ثورة دامية امتدت من أول ١٩٣٧م إلى أواخر عام ١٩٣٩م.

* * *

نظرة واحدة تلقيها على خارطة القدس في بدء النضال بين العرب واليهود، تريك الصعوبات التي تعرض لها عرب القدس فالمنازل متشابكة والاحياء تدخل بعضها في بعض.

فالشماعة مثلا كانت مركزا يهوديا هاما تقع في قلب الاحياء العربية، خلف حي مأمن الله إلى الشمال من جمعية الشبان المسيحية.

وكذلك الحي اليهودي في البلدة محاط كله بأحياء عربية وباسوار المدينة المقدسة التي يسيطر عليها العرب سيطرة تامة.

وكانت الاحياء العربية خارج السور متداخلة في الاحياء اليهودية المجاورة. ومثل ذلك جبل سكوبس المقامة عليه الجامعة العبرية ومستشفى هداسا كان واقعا في قلب المنطقة العربية بين حي الشيخ جراح والطور.

من هذا يتأكد لك صعوبة القتال بين العرب واليهود، ولهذا قل الصدام وجها لوجه باديء الامر ولمدة ليست بالقصيرة، واقتصر القتال في القدس لهذه الظروف على التخريب والتدمير والنسف.

العرب واليهود وجها لوجه في المدينة المقدسة

بدأ التوتر والهيجان في القدس وهي كما ذكرنا في البحث السابق من مجاورة العرب لليهود في معظم الاحياء، وهذا التوتر عقب قرار التقسيم الصادر بآخر تشرين الثاني عام ١٩٤٧.

وابتدأ النضال باضراب ثلاثة الايام التي تلت قرار التقسيم أي ١ و ٢ و٣، من كانون الاول عام ١٩٤٧م وتحول هذا الاضراب إلى صراع بين العرب واليهود. ولما كنا نكتب بعض الحقيقة لا كلها، فمن الواجب أن نعترف أن أبناء القدس كغيرهم من أبناء فلسطين دفعوا إلى المعركة بدون تنظيم ولا تسليح.

والمشكلة العويصة التي وقع فيها أبناء القدس وهي أنهم مجبرون على خوض حرب ليست كالثورات السابقة على طريقة حرب العصابات.

إنها حرب شوارع، وحرب الشوارع تلزمها الخبرة أولا والأسلحة الخفيفة كالرشاشات والتومي والستن والقنابل اليدوية ثم إلى الالغام ومدافع الهاون .. قبل حاجتها إلى البنادق.

والذي حدث لابناء القدس حدث لغيرهم من إخوانهم في يافا وحيفا وصفد وطبريا، تلك المدن التي يشترك العرب واليهود في السكنى فيها.

على أن حالة القدس كانت أخطر من غيرها، ففيها من اليهود ما يزيد على التسعين ألفا، وفيها قوى انكليزية كثيرة.

فهل هذه العوامل أثّرت معنويا على شباب القدس؟

واقع الحال وآثار المعارك تقول لا ...

إن القدس هي قلب فلسطين وروحها وإذا سقطت بيد اليهود كغيرها من المدن فان المصير يصبح أشد سوءا مما وقع.

ولذا فقد قرر أبناء القدس خوض المعركة غير حاسبين للخسائر حسابا.

هل رأيت مدرب الكلب على الصيد أو مدرب أي حيوان وحشي ليفتك بغيره؟

لا شك أن المدرب يتحمل شراسة من يدربه، ويتحمل عضه وخرمشته، ويسكت على الدماء تسيل من يديه وبدنه لانجاح خطته.

مكذا كان الانكليز واليهود.

فاليهود في عام ١٩٤٥م و ١٩٤٦م أعلنوا الثورة على القوات الانكليزية وسلطات الانتداب.

وتحدوها في كل مكان وبدأوا ينسفون سكك الحديد، ويستولون على الذخائر والاسلحة المشحونة من مركز إلى مركز.

وبدأوا في نسف بعض عمارات الحكومة، واغتيال الضباط الانكليز وجنودهم وجلدهم ونسفهم بالديناميت.

وكل هذا العمل كان يقابل من السلطات المنتدبة بالتربيت على كتف اليهود.

وهكذا خرج شباب اليهود في القدس وكانوا مدربين على النسف مسلحين منتظمين ليلتقوا مع أبناء القدس لا في حرب وجها لوجه بل في حرب تدميرية كاسحة.

* * *

تشكلت في القدس لجنة قومية للاشراف على النضال، وبذل عرب القدس الأموال لجلب السلاح من السوق السوداء... وأخذوا في الاستعداد، ورابط عدد من الشباب وراء الاسوار واخذ اخرون في حفر الاستحكامات والخنادق.

وبدأ اليهود بأول عدوان خطير، إذ تمكنت سيارة بصفة سيارة عسكرية بريطانية من القاء لغم كبير في باب العمود، وانفجر هذا اللغم بين جمع كبير من أبناء القدس أصاب العشرات منهم وتطايرت أشلاء جثث بعضهم مسافات بعيدة.

وايقظت هذه العملة النكراء المسؤولين في القدس، فأخذوا يسدون المنافذ المؤدية إلى الأحياء اليهودية، وإقامة الحراس عليها غير أن الجيش الانجليزي لم ترضه هذه الخطة بل عمد إلى إزالتها بالقوة.

وتكرر إجرام اليهود فقذفوا باب الخليل بالالغام والمتفجرات وقتل من ذلك كثيرون من العرب.

والقوا بعض المتفجرات والقنابل على باب العامود في آخر كانون الاول عام ١٩٤٧م، فاستشهد سبعة عشر عربيا، وجرح سبعة وعشرون اخرون، وقتل جاويش انكليزي كان هناك بطريق الصدفة.

نسف البالستين بوست وشارع بن يهودا

تطورت الحوادث الدامية في القدس، فالقناصة اليهود يطلقون النار على من يرونه ويتسللون إلى أطراف الأحياء العربية فيلقون الالغام والمتفجرات.

وكان حي مأمن الله أحد الأحياء التي وضعوا فيها الألغام، وذهب ضحيتها الكثيرون، وكذلك قرية لفتا ضاحية القدس الغربية، ونسف اليهود أيضا فندق سميراميس ليلا فذهب ضحية ذلك عشرات الابرياء من نساء وأطفال...

كان هذا يحصل... وأبناء القدس يقفون شبه مكتوفي الايدي انتظارا للسلاح، السلاح الذي يمكنهم من حرب الشوارع ومقابلة النسف بالنسف والتدمير بالتدمير.

* * *

في هذه الاثناء واليهود يزدادون في عدوانهم ويستهينون بابناء القدس العرب، دخل القدس عدد من المناضلين على رأسهم البطل الشهيد عبد القادر الحسيني، ومعهم أسلحة وذخيرة لا بأس بها تحتوي على متفجرات والغام ومدافع رشاشة ومدافع تومي. والف المرحوم عبد القادر الحسيني فرقة خاصة للتدمير من خيرة شباب المدينة، وبعض الخبراء من متطوعين المان وانكليز ويوغسلافيين وبدأت الفرقة العمل.

نسف اليهود سينما ركس العربية، وأحرق المناضلون سوق الشماعة ذلك السوق التجاري اليهودي، فاحرقت مخازنهم وبعض منازلهم. وقررت فرقة التدمير أن تقوم بعمل جريء حاسم كدرس لليهود. وعبئت سيارة بالمتفجرات ركب فيها بعض الفدائيين، وتبعتها سيارة أخرى مصفحة، وتخفى الجميع بملابس الجند الانكليزي وقصدوا الهدف الذي يريدون. واختاروا عمارة جريدة (البالستاين بوست) اليهودية، واخترقت السيارتان الشوارع دون معارضة فكل من يرى من فيها يقول عنهم جنودا انكليز.

وعندما وصلت السيارتان لجانب العمارة الضخمة، نزل من بسيارة المتفجرات واشعلوا الفتيل فيها، وركبوا المصفحة وعادوا من حيث أتوا.

لم تمض غير بضع دقائق وقع بعدها انفجار مروع كزلزال عظيم رج المدينة رجا عنيفا. تهدم من جراء الانفجار عمارات كثيرة على الجانبين وقتل من اليهود عدد كبير وخسروا من وراء ذلك خسارة جسيمة في الاموال والارواح.

* * *

واليهودي يهودي بالطبع... فبدأت صحفهم تولول وتشكوا وتصف الانفجار بالعمل الوحشي، وبدأ زعماؤهم يستجيرون بالانكليز على العرب، ويصفونهم بالمتوحشين ونسوا أعمالهم، كأن ما عملوه صلاة وتعبدا لا قتلا ولا تدميرا.

وكان هذا الحادث درسا لليهود، فضعفت معنوياتهم وبدأوا يسدون المنافذ إلى أحيائهم، وتفتيش السيارات التي فيها ولو كانت انكليزية.

ورأي المرحوم عبد القادر الحسيني كان دائما أن يتلقى اليهود دروسا قاسية، وجمع الاخصائيين بحركات التدمير والنسف، وبدأ يستشيرهم في توجيه ضربة أخرى تزعزع اليهود وتثير الفزع في نفوسهم.

وبعد دراسة خريطة القدس الجديدة قرر الاخصائيون أن خير مكان يفيد هو شارع (بن يهودا)، فعمارات شاهقة فيه وشوارع تصلح لذلك والدور متلاصقة، وعليه يجب تنفيذ الخطة ولو ضحينا بعدد من الفدائيين.

* * *

أحضر عبد القادر الحسيني سيارة (تراك) كبيرة وملأها بالمتفجرات، واختار عددا من الفدائيين بين السبعة والتسعة رجال، وزودهم بمصفحة وأسلحة وقنابل يدوية احتياطا للطوارىء.

وخرجت السيارة والمصفحة والفدائيون يلبسون لباس الجيش الانكليزي، وتقدمت السياراتان مجازفة فالنسف يجب أن يقع مهما كلف الامر.

ومن طريق القدس - يافا كان مرور السيارة والمصفحة الاتيتان من رام الله. وبسرعة كبيرة انطلقت السيارة والمصفحة فكانتا في شارع (بن يهودا).

هكذا نسف الابطال شارع بن يهودا بالقدس

في قلب شارع بن يهودا وقفت سيارة المتفجرات، ونزل منها الفدائيون .. وتقدم المسؤول الخبير وأشعل الفتيل .. فتيل الموت والدمار والخراب.

وعادت المصفحة المجنونة بجميع المناضلين الفدائيين تسابق الريح كالشهاب .. مخترقة أحياء اليهود حتى وصلت إلى المنطقة العربية.

تململت سيارة المتفجرات .. بل سيارة التأديب لهؤلاء اليهود، ومالت ذات اليمين وذات الشمال واستوت بتوازن .. ثم انفجرت كالبركان والزلزال.

ولم تشهد القدس في حياتها منذ انشئت انفجارا كهذا .. كانت العمارات في شارع بن يهودا تترنح فتهوى .. وانتشر الدخان والغبار فملأ جو القدس .. ولم تسمع اصوات اليهود وهم يستجيرون .. فدوي الانفجار حال دون ذلك.

هدأ الدوي وازاحت الرياح الغبار من سماء القدس وظهر شارع بن يهودا .. فاذا به ركام .. العمارات الشاهقة خراب، وقتلى اليهود بكثرة مجندلون في الخرائب.

وهرعت قوات انجليزية ويهودية للاسعاف، وانقاذ الاحياء من تحت الانقاض .. وعملت هذه الفرق والقوات أياما .. حتى تمكنت من نقل الاحياء واسعاف المصابين ودفن الموتى وهنا .. انتقم لله على أبناء القدس لشهداء باب العمود وباب الخليل ومأمن الله.

* * *

عادت الصحف اليهودية تتحدث بأعمدتها الطويلة وعلى صفحاتها الاولى .. فتصف العرب بالوحشية والقسوة .. وتحض اليهود على الانتقام .. وتستنجد بيهود امريكا ويهود العالم على نجدة أبناء اسرائيل – كذا ــ.

غير أن الأثر الذي أحدثه رد الفعل العربي بشارع (بن يهودا) أثار البلبلة في صفوف اليهود .. وبدأ فريق كبير منهم يتظاهر ضد عصابات الارغون وشتيرن والهاجناة .. مطالبين بالصلح مع العرب ..

ولم يأبه العرب لتوعد اليهود وانذارهم بالانتقام .. وإنما عمدت قيادة المناضلين برئاسة الشهيد البطل عبد القادر الحسيني إلى تلقين اليهود درسا آخر.

فالمعنويات عند أبناء القدس ارتفعت إلى حد بعيد .. بعكس اليهود .. وتحمس الشباب العرب للانخراط في قوة الدفاع، وقوة الهجوم، واستهان المقدسيون بثمن السلاح الباهظ طالما ان هذا السلاح يؤتي اكله.

عقدت القيادة العربية اجتماعا .. وجمعت الاخصائيين .. وبدأت الاقتراحات تتوالى .. اين يكون الهدف الذي سيضرب ضربة قاصمة ..

وأخيرا تقرر ازالة مبنى الوكالة اليهودية مركز الثقل عند اليهود. وتفنن الاخصائي في تحضير لغم يفعل الاعاجيب في هذه العمارة المجرمة. وهنا يقف القلم .. ونذكر لاخواننا .. ان الاخلاص للوطن .. لا تقف أمامه المادة .. ويهرب الخوف من وجهه ..

هكذا نسف مقر الوكالة اليهودية بالقدس

كان البطل العربي الحر هو سائق سيارة قنصل أمريكا، وهو الذي تقدم متبرعا بنقل اللغم الذي يحمل الدمار للوكالة اليهودية. وفي وضح النهار والساعة بين العاشرة والحادية عشرة من اليوم الخامس عشر من آذار عام ١٩٤٨م، انطلق البطل الفدائي السيد انطون داود بسيارة القنصل وعلم القنصلية في مقدمة السيارة واللغم فيها... واتجه نحو الوكالة اليهودية ودخل... فلم يعترضه أحد، ووصل للساحة الداخلية فلم يسأله احد... ووقف بالسيارة... وأنزل حمولتها بكل جرأة... ووضعها بجانب إحدى الزوايا، وقال اليهود الموجودون في الساحة (هذه طرود من القنصلية الامريكية للوكالة اليهودية...). وبكل رباطة جأش شد على أيديهم مودعا واحدا بعد واحد... وانطلق بسيارته... كأنه لم يأت بشيء.

وبعد بضع دقائق سمع دوي الانفجار الهائل، وانهارت معظم أجنحة الوكالة اليهودية، والحقت بالاقسام الأخرى أضرار فادحة... وازداد الذعر عند اليهود، فثلاث حوادث نسف وقعت وراء بعضها، جعلتهم يثورون على زعمائهم ويلحون في الصلح وطلب الصلح.

وارتفعت معنويات العرب ارتفاعا ملموسا ودب الحماس في كل بيت. أما المسؤولون اليهود فوجهوا هجومهم على سلطات الانتداب، واحتجوا عليها لعدم المحافظة على الامن حتى الخامس عشر من أيار عام ١٩٤٨م.

وكان رد الحومة المنتدبة باصدار بيان تطلب فيه القبض على السيد انطون داود بتهمة نسف عمارة الوكالة اليهودية. والسيد انطون كان في نفس اليوم الذي نسفت فيه الوكالة قد وصل إلى دمشق يتنزه على نهر بردى وفي ساحة المرجة... فقد أدى عمله على أتم وجه وواجبه يستدعيه الاستراحة.

جاء في قرار محكمة صلح القدس ما يلي:

(هناك ما يبعث على الاعتقاد بأن هذا الرجل - يعني انطون داود - هو الذي القى متفجرات، وكان السبب في موت وجرح كثيرين... وبما أن الرجل قد اختفى ولا يعرف مكان وجوده، لذلك صدر هذا الامر بالقاء القبض عليه).

وقال اليهود: ان الذين يتمكنون من دخول الوكالة اليهودية ونسفها قادرون على التغلب على يهود القدس دون عناء... وطالبوا بتعزيز عصاباتهم في القدس.

* * *

وجاء الدرس الرابع الذي سيلقنه عبد القادر الحسيني لليهود... فكان الاجتماع بالاخصائيين بفن التدمير... ثم الاجتماع والمشاورة... إلى اين يجب ان توجه الضربة؟

كان حي (المنتفيوري) اليهودي، ذلك الحي الذي يتمركز فيه القناصة اليهود فيفتكون بالأبرياء، ويعرقلون المواصلات ويتصيدون المارة دون هوادة. فلتكن الضربة إلى هذا الحي...

وتقدم بعض الفدائيين... وملأوا سيارة شحن كبيرة بالمتفجرات السريعة الانفجار الشديدة الاضرار... وامتطوها، وسارت في شوارع القدس تقصد باب الخليل، وهناك كانت سيارة بانتظارها... فتبعتها، لتنقل السائق والفدائيين من سيارة المتفجرات.

واقتربت السيارة إلى منحدر يؤدي إلى قلب حي منتفيوري... وعند ذلك قفز السائق ومن معه... وعادوا مع السيارة الثانية.

وظلت سيارة المتفجرات تسير على (كيفها)... حتى ارتطمت باحدى العمارات داخل الحي اليهودي المذكور... فانفجرت...

مظاهرات اليهود في طلب الاستسلام بالقدس

وانفجرت السيارة الكبيرة المملوءة بالمتفجرات في قلب حي منتفيوري، فكان التخريب والدمار بالشارع والحي المذكور درسا لم يتحمله اليهود.

فقد دمرت عمارة يهودية كبيرة وذهب من جرائه قتلى وجرحى كثيرون، وبدأت المظاهرات من اليهود تطالب بوقف القتال والصلح مع العرب ورفض اقامة دولة يهودية.

وتمكنت العصابات اليهودية أمثال الهاجناه وشترن والأرغون من إخماد المظاهرة بالقوة والسيطرة على الموقف.

وكانت الحوادث الأربعة الانتقامية المتتالية التي قام بها العرب، والتي حدثت في قلب المنطقة اليهودية نقطة تحول كبيرة في القتال بين العرب واليهود.

وكانت بمثابة ضربة معلم على رؤوس اليهود الذين تضعضعت معنوياتهم أكثر... بينما زادت قوة العرب المعنوية.

وطير الصحفيون الأجانب إلى صحفهم أنباء حرب القدس، وصوروا من الحوادث الدامية فيها فكان لها أثر قوي... بأن مشروع التقسيم لن يعيش.

* * *

في اثر هذه الحوادث الجسيمة صاح (جيسوب) العضو الامريكي بمجلس الامن يطلب عقد هدنة بين العرب واليهود، ويقترح إيقاف مشروع التقسيم والبحث عن حل اخر لقضية فلسطين.

وفعلا استجاب مجلس الامن لدعوة مندوب أمريكا... ووافق على قرار بدعوة العرب واليهود إلى التهادن في فلسطين، ودعوة الجمعية العمومية لهيئة الامم المتحدة إلى عقد جلسة خاصة تعقد في ١٦ نيسان عام ١٩٤٨م.

كان هذا القرار في الأول من نيسان عام ١٩٤٨م وخلال هذه المدة أي في السابع من نيسان المذكور استشهد القائد البطل عبد القادر الحسيني في قرية القسطل.

وباستشهاده ضعفت المقاومة العربية، فالسلاح أشبه بالخرب لكثرة استعماله والذخيرة أصبحت معدومة تقريبا.

وتمكن اليهود من جمع عصاباتهم في القدس وتحولت المعركة لصالحهم نوعا ما.

* * *

لنعد إلى فترة قليلة بين نسف حي منتفيوري واستشهاد عبد القادر الحسيني فنقول:

بعد الضربات الاربع الناجحة عمدت قيادة المجاهدين إلى تضييق الخناق على اليهود، وسيطرت قوات المجاهدين على جميع الطرق الرئيسة والفرعية المؤدية إلى المنطقة اليهودية.

ومنع الاتصال بها من خارج القدس، ومنع عن المنطقة اليهودية الماء.

وصاح اليهود في القدس الجديدة يستنجدون ويطلبون المعونة من تل ابيب والمستعمرات، فارسلت لهم تل ابيب عشرات السيارات تحت حراسة شديدة، على أمل إيصالها إلى المحصورين في القدس.

لكن هذه النجدات لم تصل واحدة منها إلى القدس، فقد تحطمت القافلة تلو القافلة تحت ضربات المناضلين المرابطين في باب الواد. ومهما كانت القافلة وقوة حراستها... فقد استولى العرب على الجميع بما تحمله من المؤن والذخائر.

ولم تنجح خطة واحدة من خطط الهجناة بايصال أي مؤن أو ذخيرة ليهود القدس، ووقعت رسائل مرسلة ليهود القدس بيد العرب فكانت الرسائل تحتوي على حليب مجفف وبيض مجفف لا يساوي الغرامات، مما دل على الجوع والضيق عند اليهود...

وعاد بن غوريون وشرتوك للصراخ والعويل لهيئة الامم لكي تتدخل لانقاذ اليهود بالقدس مع قيادة المناضلين...

وجاء من يفاوض قائد الجهاد المقدس السيد عبد القادر الحسيني الذي قال (على اليهود الاستسلام دون قيد... ونحن نتعهد بكل ما يلزمهم).

العوامل التي منعت العرب من احتلال القدس

رفض اليهود الاستسلام... ولا نعني جميع اليهود، وعاد رئيسها دافيد بن غوريون ومساعده موشي شرتوك يصيحان ويبكيان لهيئة الامم قائلين: "ان مائة الف يهودي محصورون في القدس مهددون بالموت جوعا وعطشا..".

وطيرا برقية لمجلس الامن يقولان فيها "على مجلس الأمن أن يثبت وجوده وينقذ هذه الألوف المؤلفة من الموت المحقق".

وبينما كان هذان اليهوديان يستصرخان الامريكان والانجليز لانقاذ القدس المحصورة، كانت قوات العصابات اليهودية تحاول الكرة تلو الكرة الوصول بالقوة للقدس، وإيصال المؤن لليهود فيها فلم تنجح...

كانت هناك قوات من المناضلين من منطقة رام الله وقوة من المتطوعين الاردنيين بقيادة (هارون بن جازي) مرابطة ليلا ونهارا ساهرة بكل يقظة، تتصيد القوافل اليهودية فتستولي عليها.

* * *

هنا نتوقف لنتساءل... ما الذي أعاق المجاهدين عن احتلال القدس الجديدة عنوة؟

إن السبب يعود أولا وأخيرا على اللجنة العسكرية التي كانت تشرف على السلاح التابعة للجامعة العربية، فقد كانت شحيحة جدا... وبخيلة جدا في تزويد عرب فلسطين بالسلاح...

وخصصت أحسن ما لديها من السلاح إلى جيش الانقاذ، والتالف والخرب لعرب فلسطين...

* * *

هذه فقرات من كتاب كارثة فلسطين لمؤلفة السيد محمود فهمي درويش سكرتير عام جمعية انقاذ فلسطين في بغداد نذكرها مصداقا لما نقول:

(إن الخطة التي سارت عليها اللجنة العسكرية بالنسبة للمناضلين، ولجيش الانقاذ، لم تكن مبنية على درس صحيح أو تقدير حقيقي لما يتطلبه الموقف).

(لم تفكر اللجنة العسكرية في انتداب بعض الضباط للقيام بمهمة تدريب الاهلين في المدن والقرى رغم انه طلب منها ذلك وكان تنفيذه امرا ضروريا).

(لم توجه اللجنة عناية إلى ما يحتاجه المناضلون من نفقات ضرورية كالالبسة والاغطية والتنقلات وغير ذلك).

(لم تمد اللجنة العسكرية مناطق المناضلين بالأسلحة الضرورية والذخيرة الكافية).

ويقول السيد فهمي درويش:

(مع هذا فقد أبلى المناضلون بلاء حسنا، له أثره العسكري بالاحتفاظ بالمناطق التي كانت بين أيديهم).

(أما بالنسبة لجيش الانقاذ فقد جعلت اللجنة العسكرية جل اعتمادها عليه، فخصته بمختلف الأعتدة والأسلحة... من مدفعية وسيارات ومصفحات وذخيرة وأموال ولم يكن هناك ما يقر هذا التخصيص لجيش لم يستطع أن يؤدي ما كان مرجوا منه، ولم يأت من الاعمال العسكرية ما يميزه من المناضلين) اقرأ الصفحة ٥٦،٥٥ من كتاب كارثة فلسطين.

* * *

هذه العوامل التي أخرت المناضلين الاشاوس من عرب فلسطين والمتطوعين معهم من احتلال القدس الجديدة التي لو سقطت بيد العرب لتغير مجرى المعركة بين العرب واليهود.

وهكذا... بخل اللجنة العسكرية، وإهمال الجامعة العربية حال دون ربح معركة ربما كانت فاصلة.

لم ينحصر القتال في منطقة باب الواد في المنطقة الغربية من مدينة القدس، بل امتد إلى ضواحي القدس الشمالية والجنوبية.

لقد شحن اليهود سبعين سيارة بين مصفحة وسيارة شحن وناقلة جنود... ورافقتها قوة يبلغ عددها مائتي جندي من أشد جنود عصابات اليهود مسلحين بأحدث الأسلحة، وفوق القافلة طيارة عسكرية يهودية تحرس القافلة متجهة إلى مستعمرة كفار عصيون...

- نقص أعداد الجريدة حال دون اتمام الموضوع ... -

جيش الانقاذ يستعيد القسطل ويحتل مستعمرتين

عاد سكان القدس ومنطقتها بعد الحوادث التي ذكرناها إلى الاتصال بكل جهة، بدمشق، بعمان، بالقاهرة، يطلبون السلاح وإنقاذ المنطقة والمدينة المقدسة من الخطر.

ورأى جيش الانقاذ ان يفعل شيئا فصدرت الأوامر إلى العقيد محمود الهندي - ضابط سوري - بأن يتسلم قيادة المنطقة، ويخلف القائد الشهيد عبد القادر الحسيني، وكان هذا الامر بتاريخ ٢٦ نيسان عام ١٩٤٨م.

وإلى أن يصل العقيد الهندي من دمشق إلى القدس فقد الحقت القدس بالاضافة إلى قطاع الرملة واللد بفوزي القاوقجي المعسكر في منطقة نابلس.

غير أن العقيد الهندي اشترط على القيادة ان تطلق يده باستلام ما يريد من أسلحة وعتاد ومدافع فرفضت شروطه، وهو بدوره رفض استلام قيادة المكتوب معتبرا بعبد القادر الحسيني.

وصدر أمر من دمشق لفوزي القاوقجي أن يجند منطقة القدس... فانتدب الرئيس الاول عبد الحميد الراوي - عراقي - قائدا لحامية القدس، ووضعت سرية الرئيس فاضل رشيد - عراقي - الموجودة في منطقة القدس تحت إمرته.

وجعلت مهمة الرئيس الراوي الدفاع عن الاحياء العربية واحتلال المراكز المهمة التي يحتلها الجيش البريطاني، عهد اليه أيضا أن يقطع طريق تل ابيب - القدس بنسف الجسور والعبارات الموجودة حول اللطرون وباب الواد والقسطل وسد الطريق بالصخور.

وزود القاوقجي الرئيس عبد الحميد الراوي بخمسين بندقية تشيكية ومدفع رشاش من طراز هوشكيز، وثلاثة الاف طلقة وثمانين قنبلة مدفع هاون ومائة مقبض بندقية.

قال العميد الركن طه باشا الهاشمي (إن بقاء اليهود في القسطل يؤثر تأثيرا سيئا على المدينة المقدسة ويجعل اليهود مسيطرين سيطرة تامة على المنطقة).

وقال ايضا (لقد اصبحت اعتقد بضرورة تعيين قائد عسكري لمنطقة القدس واللد والرملة، على أن يزود ببطارية كاملة من المدافع وفوجين من الجنود، الا أنه - مع الاسف - قال فقط... ولم يفعل شيئا).

ولم يكن بالقدس يومئذ سوى ثلاثمائة مناضل... منهم ستون في القطمون يقودهم المرحوم ابراهيم ابو دية، وثلاثون في البقعة الفوقانية يقودهم شفيق عويش، وعدد آخر في المصرارة يقودهم بهجت ابو غربية... وهكذا جنود متفرقون... تنقصهم الذخيرة والأسلحة الحديثة.

* * *

لقد قدر اليهود المحاربون في القدس بعشرة آلاف محارب بقيادة جنرال بولوني، عدا عن الجنود الارغون وشتيرن.

وقد وصلت قوات الانقاذ في أحرج الساعات فمرت بسياراتها ومصفحاتها مساء بمدينة رام الله ولكنها لم تتوقف وتابعت السير... مخلفة وراءها في رام الله النشوة والفرح بالفرج القريب.

واقتربت القوات من ميدان المعركة وحالا وزع الضابط الجنود ورسموا الخطة، وصباحا بدأت المدفعية تقذف القسطل بالقنابل فدمرت مراكز اليهود، وزحف المشاة فاستعادوا القرية وقتلوا جميع من فيها من اليهود وحولت قوات الانقاذ هجومها الخاطف إلى مستعمرتي "موتزا" و "قريات عنابيم"، ووجهت أفواه المدافع اليهما لتقصفهما قصفا لا هوادة فيه... فتهدم الحصون والاستحكامات وتدمر المنازل.

وبعد أن خفت مقاومة اليهود زحفت المشاة فاحتلت المستعمرتين وقتلت جميع المقاتلين فيهما. وعلى طريق (القدس - موتزا) نصبت القيادة مدفعا كبيرا أخذ يحطم السيارات والمصفحات اليهودية التي كانت تحاول الوصول للمستعمرة من القدس للنجدة.

وتم لقوات الانقاذ السيطرة على طريق القدس - موتزا - تل ابيب. وتقدم قسم من المدفعية بحراسة المصفحات حتى وصلت إلى عين كارم... أقرب قرية عربية لأحياء القدس الغربية اليهودية... ومن هناك بدأت المدافع تقذف قنابلها على الأحياء اليهودية.

ودب الذعر في المنطقة اليهودية من القدس من جديد، فقد هدمت عشرات المنازل والابراج وتراكض اليهود في الشوارع إلى الملاجيء. وعاد زعماء اليهود يستجيرون بالانجليز فتوسطوا مع بعض المراجع العليا، وطلب من المناضلين الكف عن الضرب والانسحاب فزاد ذلك في عناد المقاتلين... وازدادوا في قصف الاحياء اليهودية.

وقاربت فرقة عهد اليها احتلال دير ياسين والثأر لشهدائها قاربت من دخول القرية...

معركة باب الواد... كيف بدأت وكيف انتهت؟

وأشرفت الفرقة التي تقدمت تحت ستار المدفعية نحو دير ياسين، أشرفت على أطراف القرية زحفا، وصبت رصاص رشاشاتها صبا كالمطر المنهمر، بينما كانت المدفعية تدوي بقنابلها في الاحياء اليهودية.

وأيقن اليهود أنه في حالة سقوط دير ياسين، فان القدس ستسقط بعدها. وعادت الوكالة اليهودية تستنجد بالانكليز فاضطرت قوات الانقاذ ومعها قوات المناضلين الفلسطينيين إلى التراجع والانسحاب من الميدان بعد أن كان النصر واحتلال القدس قاب قوسين أو أدنى.

ولم يرض اليهود بذلك فعادوا يشكون من بقاء المدفعية المدمرة، وارغمت المدفعية على أن تخرج من المنطقة، وعادت هذه القوة المؤمنة المجاهدة إلى الوراء والابتسامة الصفراء تختلط بالدموع المتساقطة على وجوه الجنود والضباط.

ونتيجة للانسحاب الاجباري هذا غدت تلك المنطقة الواسعة الممتدة الشاملة عين كارم ودير ياسين ومستعمرتي موتزا وقريات عنابيم والقسطل بدون قوات كافية، بل تركت المنطقة والذين فيها أسوأ حالا من الذين كانوا يدافعون عنها عند ضياع القسطل ودير ياسين في المرة الاولى واستشهاد عبد القادر الحسيني رحمه الله.

* * *

أصبحت الفرصة مواتية لليهود فهاجموا المنطقة من جميع أطرافها ولم يحتاجوا إلى كبير عناء... وطول مدة القتال... فقد استولوا عليها من أول هجوم... وحصنوها واحتفظوا بها احتفاظا كليا فلم يخرجوا منها...

وأصبح اليهود بعد ربحهم المعركة يشرفون على طريق باب الواد وتلك المنطقة... التي بذلوا المسحيل رغم انتصاراتهم هذه... لاعادة فتحها فلم ينجحوا.

وقد حشد اليهود قوات كبيرة... وحاولوا مرارا عديدة إزالة السدود التي وضعها المناضلون العرب في طريق باب الواد... وفي كل مرة كان يتصدى لهم المناضلون... فيعود اليهود خاسرين، بيد أن قيادة الهاجناة وبالاشتراك مع عصابتي الاغون وشتيرن... قررت فتح الطريق إلى القدس... ولو كلفها ذلك أفدح الاثمان.

إن خطة اليهود كانت تقوم على فتح هذه الطريق قبل حلول الخامس عشر من أيار عام ١٩٤٨م.

ولذلك قامت بآخر محاولة، وجهت الفين وخمسمائة جندي... ودفعهتم للهجوم من الجهتين الشرقية والغربية بمؤازرة المدفعية الثقيلة والدبابات والمصفحات تبغي احتلال جوانب الوادي وسفوح الجبال الكثيرة والغابات المحيطة به ومن ثم فتح الطريق وازالة السدود وتسير بعدها القوافل.

كانت المعركة في التاسع من أيار عام ١٩٤٨م، وقد قامت قوات المناضلين المرابطة هنا بالاشتباك مع القوات اليهودية، ودامت المعركة يومين كاملين لم ينقطع خلالها إطلاق النار... والتحم الفريقان في كثير من المرات بالسلاح الأبيض.

وهرع الشباب العرب من رام الله والقرى المجاورة للنجدة... فازدادت معنويات المناضلين العرب... وجاءت النجدة أيضا من نابلس... واستمر نار المعركة كأشد ما تكون المعارك الحربية، وتمكن اليهود من احتلال قرية بيت محسير وتدميرها كليا واحتلوا أيضا بعض سفوح الجبال والاحراش فاتخذوا منها استحكامات قوية.

* * *

وفجأة وصلت مدفعية جيش الانقاذ بقيادة العميد مهدي صالح... عراقي، وهذا العقيد نشهد له بالبطولة فقد رأيناه في معركة ترشيحا وغيرها.

وبدأت المدفعية تصوب أهدافها ثم تطلق قنابلها على اليهود وحشوداتهم.

واندفع المناضلون نحو اليهود وأمعنوا بهم قتلا... بينما لاذ اليهود بالفرار محاولين النجاة بالمصفحات والدبابات، ولكنهم لم ينجوا من المدفعية التي اعطبت وعطلت العشرات منها.

ووجهت المدفعية أفواهها نحو مستعمرة الخمسة، وسميت بذلك لأن خمسة من اليهود قتلوا في ثورة ١٩٣٦م هناك، وأسست المستعمرة باسمهم ثم إلى مستعمرة كفيورة حيث كانت حشودات يهودية فدمرت تحصيناتهم.

وأجبرت المدفعية على الانسحاب مرة أخرى كما جرى في السابق. ولكنها انسحبت بعد ان انتقمت وكانت هذه المعركة أعظم معركة ربحها المناضلون في منطقة القدس.

لقد خلف اليهود وراءهم مئات القتلى ظلوا مبعثرين مدة طويلة في ميدان المعركة، حتى تمكن رجال الهدنة والصليب الاحمر من دخول المنطقة وجمع القتلى.

أما الغنائم فكانت وفيرة جدا اقتسمها المناضلون حسب حاجياتهم.

معركة الشهيد عبد القادر الحسيني في القسطل

واشتبك المجاهدون في قتال مرير مع اليهود الذين تمركزوا داخل القسطل وضواحيها، بينما اشتبكت قوات أخرى مع قوات اليهود التي تمركزت ايضا في جانب آخر من القرية.

ودام القتال في شوارع القرية وأزقتها واستعملت القنابل اليدوية والسلاح الأبيض أحيانا.

وتمكن المناضلون من استعادة قرية دير محسين، وأقاموا بها تسع ساعات، وانسحبوا أخيرا تحت ضغط هجوم يهودي جديد.

وانتهت معركة دير محيسن باستيلاء اليهود عليها، وتوجهت قوى المجاهدين إلى القسطل حيث تأججت المعركة وهرعت النجدات من القرى، وتمكن المناضلون من تطويق القرية تطويقا محكما وضرب الحصار على اليهود فيها.

وبعد معارك شديدة تخللها هجوم ضعف مركز اليهود فاستجاروا بقيادتهم التي أسرعت بارسال طائرتين اخذتا تقصفان مواقع المناضلين بالقنابل.

وقد أسقط المجاهدون احداهما واعطبت الاخرى واستمر القتال بعنف دون توقف ليلا نهارا طوال اربعة ايام، لم ترجح كفة على كفة.

وامتدت المعركة إلى مسافات تجاوزت الكيلومترات واتصلت بضواحي القدس الغربية، فتوزعت قوى اليهود في القسطل وفي قريات عنابيم وموتزا، ومع هذا لم ينجح العرب في احراز نصر حاسم.

* * *

وساء الموقف ونفذت معظم الذخيرة وأصبحت المعركة بمسيس الحاجة إلى مدفعية تقابل مدفعية العدو.

وأبرق المناضلون للقائد عبد القادر الحسيني يشرحون الموقف ويطالبون بالاسراع بالمدافع والذخيرة.

وتلقى عبد القادر البرقية وحملها للعميد طه باشا الهاشمي فمد يده إلى جيبه ونفضها (ماكو مدافع آغاتي... ماكو ذخيرة عيني) وأسرع بالعودة صفر اليدين بدون سلاح.

واجتمع مع ضباطه فشرحوا له الموقف واليأس الذي تسرب إلى صفوف المناضلين.

* * *

رحم الله عبد القادر... لقد عرف انه سيموت وآمن بالموت... ولذا آثر أن يموت في الميدان لا في خارجه.

قال رحمه الله سيتقرر اليوم مصير القدس، وكان اليوم السابع من نيسان عام ١٩٤٨م وتقدم المجاهد يحمل مدفعا رشاشا... وتمنطق بحزام مشكوكة فيه القنابل اليدوية، وسارت وراءه حظيرة من الفدائيين وهجم على أطراف قرية القسطل التي يحتلها اليهود.

وتغلب على وكر يهودي فالثاني والثالث، إلى أن وصل إلى أطراف القرية، وهنا اشتدت مقاومة اليهود فقاوموا بجنون لم يثن عبد القادر عن عزمه، وتقدم نحو مركزهم الرئيس فدمره على من فيه. وتقدم إلى قلب القرية التي انقلبت إلى ساحة حرب شوارع استعمل فيها العرب واليهود السلاح الابيض والصراع بالايدي، واختلط الفريقان في معركة لم يشهدها احدهما من قبل، ووصلت قوى المناضلين وراء البطل عبد القادر تشد أزره، وشعر اليهود بأنهم سيخسرون المعركة نهائيا. وانسحبوا من الشوارع ولجأوا إلى البنايات يقاومون مقاومة جنونية.

وكان عبد القادر حينذاك بحالة نفسية عصبية، وكان يلقي بنفسه في مواقع الخطر ولكن عبثا حاولوا... فلم يرض الا ان يكون في المقدمة.

وطلب اليه المناضلون ان يلجأ إلى بيت في القرية يدير المعركة منه، أبى ولم يقبل وأصر على أن يكون أول المهاجمين.

ورأى وكرا يهوديا يقذف القنابل اليدوية على المناضلين العرب، فتقدم نحوه ليقضي عليه. وكاد أن ينجح لولا رصاصات من رشاش يهودي صوبت اليه. وخر البطل شهيدا صريع الشرف والوطن في ١٩٤٨/٤/٨م.

هكذا خسرنا البطل الشهيد عبد القادر الحسيني

استقرت الرصاصات التي صوبها يهودي من كمينه في صدر البطل عبد القادر الحسيني، فكانت قاضية على حياته فخر صريع الشرف والوطن والواجب.

وهنا نستطيع أن نحلل نفسية الشهيد في معركة القسطل ذلك الرجل الذي وهب حياته لوطنه منذ عام ١٩٣٦م إلى أن اختار لنفسه هذا المصير.

لقد دخل معركة القسطل فور عودته من دمشق، ولم يكن في دمشق للنزهة أو الراحة أو الاستجمام وإنما ذهب اليها ليقول للمسؤولين هناك أن القدس في خطر.

والخطر هذا لا يحتاج إلى كثير من الرجال بل الكثير من الذخيرة والمدافع ليدافع عن القدس.

وعودته فاشلا صفر اليدين والبرقيات والكتب من القدس وصلته تنذر بالخطر، جعلت البطل يبدو غير طبيعي فخاض المعركة بالنفسيه التي تحكمت فيه وهي اليأس.

كان بامكانه أن ينجو وأن يحاور ويداور... ولكنه عمل بموجب بيت الشعر لأبي فراس الحمداني:

وقال أصيحابي الفرار أو الردى

فقلت هما أمران أحلاهما مر

وهكذا وبهذه النفسية خاض عبد القادر المعركة وهي معركة انتحارية بالنسبة اليه.

ولم يقتل اليهود عبد القادر وإنما قتله الذين تهاونوا في أمر القدس وتأخروا عن تزويد عبد القادر بالسلاح.

* * *

فتشت جيوب عبد القادر الشهيد... فوجدت أفرغ من فؤاد أم موسى، واحصيت ديونه فبلغت خمسة عشر الف جنيه. من هنا تعرف من هو عبد القادر...

وحياة عبد القادر كلها نضال، فقد طرد من الجامعة الامريكية في القاهرة بأمر من رئيس وزراء مصر اسماعيل صدقي باشا عام ١٩٣١م، بسبب خطبه الوطنية في الطلاب واشتراكه بالمظاهرات في القاهرة مع الطلاب المصريين وغيرهم.

واعتقل في بغداد أكثر من سنتين عام ١٩٤٤م أيام الحرب العالمية الثانية، وفي السجن عادت جراحه التي اصيبت في معركة الخضر عام ١٩٣٦م ورأت حكومة العراق ابعاده فابعد إلى الحجاز.

وبقي في الحجاز إلى أن صدر قرار التقسيم عام ١٩٤٧م فجاء إلى مصر ومنها إلى القدس للاشتراك في الحرب المقدسة، تلك الحرب التي خر فيها شهيدا رحمه الله.

* * *

لم تنته معركة القسطل باستشهاد البطل عبد القادر، فقد مهد للنصر بروحه ودمه... ودفع حياته ثمنا له بل استمر القتال حتى ابيد اليهود عن بكرة أبيهم الذين تحصنوا بالقسطل المحصورة وبلغ عددهم اربعمائة قتيل.

وعلم المجاهدون باستشهاد عبد القادر الحسيني، فكانت ساعة علت وجوههم علامات الأسى والوجوم ونقل الشهيد إلى رام الله قبيل غياب الشمس، من يوم الخميس الثامن من نيسان عام ١٩٤٨م ومنها للقدس.

وفي صباح الجمعة التاسع من نيسان شيع جثمان الشهيد من داره بظاهر باب الساهرة إلى الحرم الشريف، حيث سار في الجنازة الالوف وكبار رجالات البلاد فكان يوما مشهودا لم تر القدس جنازة مثلها.

وبعد الصلاة في الحرم الشريف على الشهيد، أبّنه كثير من الخطباء ودفن في الحرم في المكان المدفون فيه المرحوم الملك حسين بن علي ومحمد علي الزعيم الهندي.

* * *

قلنا أكثر من مرة أننا نكتب للعظة والتاريخ... نسجل تارة صفحة بيضاء ناصعة كصفحة عبد القادر الحسيني وسرور البرهم ومحمد الحنيطي وغيرهم، وتارة صفحة سوداء.

وهنا نسجل اخطاء ارتكبها المناضلون في منطقة القدس عقب استشهاد عبد القادر الحسيني، فقد استشهد وزمام معركة القسطل انتزعه من يد اليهود، وحين هوى شهيدا سلمه للمناضلين وهؤلاء بدلا من ان يحتفظوا بالقسطل ويحصنوها ويحصنوا غيرها من القرى... تركوا القسطل في المساء وساروا وراء الجنازة إلى رام الله ومنها إلى القدس.

هذه الفوضى التي ارتكبها المناضلون أعادت القسطل لليهود وعقبها مجزرة دير ياسين تلك المجزرة التي انتقم اليهود فيها انتقاما فظيعا لقتلاهم في القسطل وغير القسطل.

ومجزرة دير ياسين رافقتها أخطاء أكثر من أخطاء المناضلين إذ انبرى عدد من رجالات البلاد المثقفين يولولون ويصرخون ويهولون من فداحة المجزرة، وما علموا أنهم نشروا الرعب في نفوس السكان.

دير ياسين

بقلم : أحد ابنائها

ليس هناك من يجهل هذه المجزرة الوحشية، وليس هناك من ينسى اسم دير ياسين الذي ما ذكره عربي إلا وذكر معه الوحشية المتناهية، والدمار الناسف، والهمجية الفظيعة التي يحملها لنا اعداؤنا الذين تكاتفوا على سلبنا هذا الوطن الغالي، فدير ياسين كانت أول قرية جرب فيها اليهود فظائعهم، ونشروا الفزع والخوف في قلوب أبنائنا، وفي دير ياسين علاوة على ذلك عبرة لمن يعتبر من ساستنا وزعمائنا الأماجد.

في طريقك وأنت ذاهب من القدس إلى يافا، وبعد أن تمر بقرية لفتا التي تقع على منتهى حدود بلدية القدس، تجد هناك لافتة تشير إلى طريق فرعية كتب عليها (دير ياسين ٢ كم) وبعد مسير خمس دقائق في هذه الطريق، تجد نفسك أمام ربوة خضراء جميلة انتشرت على سفوحها الاشجار المثمرة وكستها الخضرة الدائمة بردائها الربيعي الجميل، وعلى سفوح هذه الربوة وعلى قمتها انتشرت بيوت القرية بانتظام، كل هذا جميل ولكن الذي يؤلمك هذه المستعمرات التي تحيط بها من كل جانب، وتضرب حولها طوقا فولاذيا لا منفذ منه، ففي الشرق جثمت هنالك مستعمرة (كفعات شاؤول) وهذه المستعمرة نفسها تمتد بيوتها لتحد القرية من شمالها أيضا، وكأنها سلسلة جبلية، وفي الغرب تقع هنالك مستعمرة (موتزة) التي اشتبكت مع قرية (قالونيا) العربية في معارك دامية عديدة، والمنشار الذي اشتبك مع قرية القسطل التي قتل فيها الشهيد الخالد عبد القادر الحسيني. أما من الجهة الجنوبية فان مستعمرتي (بيت هاكيرم) و (منتفيوري)، قد ضربتا طوقا لم يدعا فيه لاهل القرية منفذا، وهكذا تستطيع أن تتصور هذه الفئة من الناس التي لا يتجاوز عددها التسعمائة نسمة، محصورة بين هذه السلسلة الخانقة من المستعمرات والاعداء التي تحيطها من كل جانب.

كان ذلك في صباح يوم الجمعة، التاسع من نيسان سنة ١٩٤٨م، عندما بدأت أضواء الفجر تشع فوق حقول القرية الغناء، وعندما أخذ الاهالي ينفضون عن اجفانهم النوم، وبينما كان حراس القرية وحماتها يتأهبون لمغادرة مراكزهم بعد أن اضنى عيونهم السهر المتواصل طيلة الليل، زغردت أول طلقة في سماء القرية وتبعتها المدافع بهديرها العاصف والقنابل بازيزها ودويها، وذهل حماة القرية الأشاوس وهبوا بسلاحهم البسيط وذخيرتهم المحدودة يجابهون المصفحات التي أصبحت فجأة على مدخل القرية، المدافع الاوتوماتيكية والرشاشة التي أخذت تمطر الأهالي بوابل نيرانها الحامية. لزم الاهالي مراكزهم وأخذوا يدافعون بكل بسالة والاعداء يتساقطون أمامهم جماعات ووحدانا. تدفقت النجدات اليهودية إلى القرية وما أعلنت العاشرة صباحا حتى كان اليهود يدخلون على العائلات في بيوتهم ويعملون فيهم أيدي الذبح والقتل، وانسحب الحماة جميعهم إلى المركز القائم في أقصى الجهة الغربية، ومن هناك بدأوا يقذفون اليهود بكل ما تبقى لديهم من قنابل ورصاص، وارتفع عدد القتلى من اليهود وتساقط أمام نيران الحامية الباسلة عشرات الجثث، وعند الساعة الواحدة ألقى آخر جندي سلاحه وانسحب من الجهة الوحيدة التي ابقاها اليهود كثغرة يستطيع أن يهرب منها الأهالي ليسهل استيلاؤهم على القرية، وهي الجهة الغربية الجنوبية التي تؤدي إلى قرية عين كارم حيث انسحب كل أهالي القرية الذين نجوا من حملة الاعداء الشنيعة.

حدث كل هذا وعشرات الالوف من الجنود العرب بكامل أسلحتهم يشيعون جنازة الشهيد عبد القادر الحسيني في القدس وقرية عين كارم لا تبعد أكثر من كيلو مترين عن القرية، وفيها ما يكفي لنجدة أهالي قرية (دير ياسين)، وقد استنجدت حامية القرية بجنود القدس العديدين وبقرية عين كارم المجاورة ولكن لم ينجدهم احد.

هكذا سقطت أول قرية فلسطينية بايدي الأعداء والعبرة لم تكن في المعركة نفسها، ولكن في نتائجها التي كانت وبالا على كافة المدن والقرى الفلسطينية، فقد هول وضخم المسؤولون الجرائم التي اقترفها اليهود وصوروها

بابشع ما يمكن تصويره، قاصدين إثارة الحمية والنخوة القومية لسحق اليهود، ولكن النتائج جاءت على عكس المقصود فقد دب الفزع والهلع بقلوب أبناء القرى والمدن الكبيرة الأخرى، وكان مجرد سماعهم بقرب اليهود نحوهم كاف لان يجعلهم يتركون بيوتهم ويهرولون خوفا من أن تذبح رقابهم وتبقر بطونهم كما فعل اليهود بأهالي دير ياسين.

وختاما، أجد أن من الانصاف الاشادة بذكر شهيدة دير ياسين الخالدة الانسة حياة بلابسي معلمة إناث القرية التي رفضت أن تهرب مع بقية نساء القرية، بل حملت حقيبة الاسعاف وخاضت المعركة مشجعة محمسة، حتى حمل اليها الموت في طلقة وجهها اليها قاتل اثيم من الاعداء بينما كانت جاثمة فوق جثة أحد حماة القرية الذي اصيب بجرح خطير تسعفه وتضمد جراحه، فكانت مثلا رائعا لبطولة المرأة العربية، وصدى ردود أصوات لبؤات اليرموك خولة بنت الازور ورفيقاتها الخالدات.

عمان - يونس أحمد أسعد

مجزرة دير ياسين أضخم جريمة بتاريخ العرب

كل حركة مهما كانت غايتها نبيلة ولم تقم على أساس منظم فان سيئاتها عادة تكون أكثر من حسناتها.

ونحن عرب فلسطين كنا نحارب بكل شجاعة وبكل تضحية لم نبخل بالمال في سبيل السلاح إنما كان ينقصنا التنظيم والتدريب.

وكثيرا ما كانت تدب الفوضى في صفوفنا لامور بسيطة جدا، حيث تتغلب عواطفنا على عقولنا فنجني عاقبة التهور.

ومن ذلك ما جنيناه حين شيعنا جنازة الشهيد عبد القادر الحسيني، فقد أخذ المناضلون يتسابقون ويتدافعون بالمناكب لمرافقة الجثمان من القسطل إلى رام الله.

وفي رام الله تجمع ألوف مؤلفة بينهم الكثيرون من المسلحين والمناضلين ليرافقوا الجثمان إلى القدس ثم إلى مقره الاخير.

وفي هذه الفوضى ضاعت القسطل، وفي هذه الفوضى هاجم اليهود ليلا قرية دير ياسين.

ولم يكن عند اليهود يوم فرح منذ أن ابتدأت المعارك بينهم وبين العرب أكثر من يوم استشهاد عبد القادر الحسيني، فقد كان كالكابوس على ظهورهم ورؤوسهم.

* * *

قرية دير ياسين ضاحية من ضواحي القدس الغربية، وتقع بين قريتي عين كارم ولفتا العربيتين، وموقعها لا تحسد عليه فهي تحت رحمة اليهود إذ تقرب منها شرقا القدس الجديدة أي الاحياء اليهودية منها، ولم يدخلها أحد من المناضلين اطلاقا ومع ذلك استطاع بعض ابنائها أن يدخلوا الاسلحة اليها خوفا من غدر اليهود.

وقد اختارها اليهود لضعفها وبعدها عن مناطق المناضلين .. لان تكون ضحية لانتقامهم واختاروا لها عصابة مناحيم بيغن الارهابية المعروفة بعصابة الارغون وعصابة شتيرن.

ففي الساعات الأولى من صباح يوم الجمعة التاسع من نيسان عام ١٩٤٨م، قامت قوة يهودية تقدر بخمسمائة جندي وضربت نطاقا حول قرية دير ياسين، فحصرت السكان فيها بينما تقدمت دبابتان من طراز شيرمان إلى منتصف القرية واليهود وراءهما مسلحين بالرشاشات والقنابل اليدوية، وداست الدبابتان اثنين من القرية، كانا خارجين مبكرين للحقل، وبدأ من في الدبابتين يطلقون النار ويلقون القنابل على البيوت.

وخرج الذين لديهم بنادق من أهل القرية، ودافعوا دفاعا لا فائدة منه وان كانوا قتلوا عددا من الجنود اليهود.

إن بنادقهم قليلة والذخيرة تكاد تعد على الأصابع، وأخيرا استسلمت القرية للوحوش الضارية بعد أن هرب من هرب ومن كان خرج للحقول قبل مجيء اليهود.

وبدأت المجزرة .. وجيء بالاطفال أولا ليذبحوا أمام آبائهم، وجيء بالنساء الحوامل فبقرت بطونهن أمام رجالهن، ثم جيء بالشباب فذبحوا أمام الآباء إلى أن رويت الذئاب من دماء الأبرياء.

وقد رأى القائد اليهودي .. استبقاء عدد من النساء والاطفال والعجزة، فمزقت ثياب النساء حتى بانت عوراتهن .. وحمل الجميع بالسيارات إلى القدس الجديدة وتل أبيب فاستعرضهن اليهود للتشفي والانتقام، ثم أعيدوا إلى القدس ليستلمهم الصليب الاحمر الدولي، ويسلمهم بدوره إلى العرب في القدس القديمة.

* * *

وقد طلب المسيو جاك دورينيه مندوب الصليب الاحمر من الوكالة اليهودية دخول دير ياسين فلم يسمح له الا بعد ثمان وعشرين ساعة، حيث تمكنت القوة اليهودية من إزالة معالم الجريمة، فالقت مائتي جثة في بئر مهجورة وغطيت بالأقذار والأوساخ.

لكن رائحة القتلى فضحت اليهود، فتمكن مسيو جاك من إحصاء الجثث فوجد أن أجساد القتلى لم تكن كاملة، وقد روي هذا المندوب البلجيكي وهو يحمل فتاة في السادسة من عمرها .. القيت حية بين القتلى وهو ينقل الفتاة إلى المستشفى، إن هذا العمل لم يسبق له مثيل في تاريخ الحروب.

وتنصلت الوكالة اليهودية من المسؤولية، ولكن الارغون فضحتها وقالت أن مجزرة دير ياسين دبرتها الوكالة اليهودية بالاتفاق مع الارغون وشتيرن.

حين كان العرب يتسلمون بقايا سكان دير ياسين من الصليب الاحمر، كان المذيع اليهودي في الراديو يقول بالحرف الواحد (إن على العرب أن يدركوا حين يرون دبابات اسرائيل أن هذا المصير نفسه ينتظر قريتهم).

خطة من خطط دافيد بن غوريون وشرتوك اللذين يصرخان اليوم بأنهما طالبا سلام، ومحبان للسلام، وخطة كهذه تدل على نفسية اليهود، وعلى مدى ما يكنه هؤلاء الدخلاء للعرب في حالة تمكنهم من ضربة يضربونها.

وقد حدث مثلها في قبية من قبل الجيش النظامي الاسرائيلي الذي يمثله رئيس وزراء اسرائيل المطالبة بالسلام الان.

وبدأ العرب يذيعون ويهولون عن جريمة دير ياسين. ونتج عن تهويلات العرب أن ساد الذعر النفوس وبدأ سكان القرى ينزحون عنها لاقل طلقة تسمع في قرية مجاورة.

بوليتكنك فلسطين
Palestine Polytechnic Institute (PPI)
المكتبة
THE LIBRARY
Acc. 2237 الرقم المتسلسل
CLASSIFCATION ..... رقم التصنيف